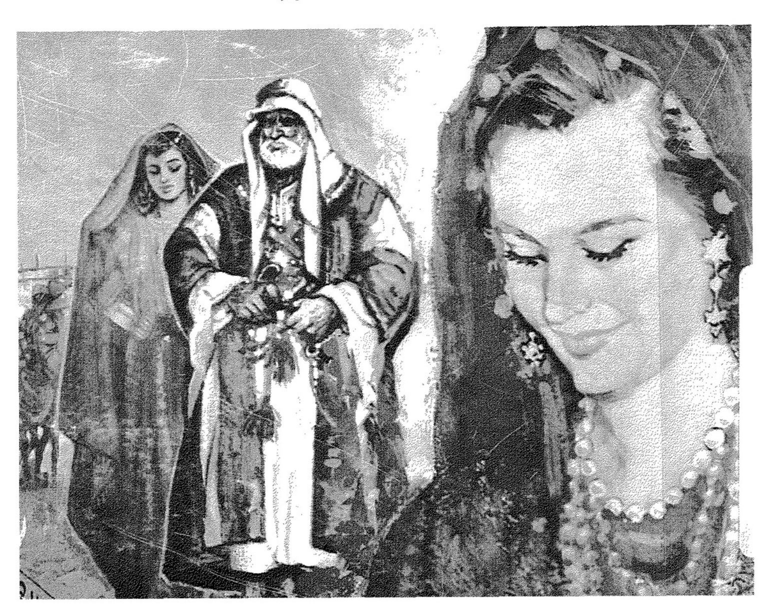
علي أحمد باكثير

هُمام

في بلاد الأحقاف

مسرحية شعرية



هــمّـام

فى بلاد الأحقاف

همّام

في بلاد الأحقاف

مسرحية شعرية

نظم

علي أحمد باكثير

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

مُقَدمَة المـؤلف

هذه المسرحية الشعرية التي استوحيت موضوعها من الحياة الاجتماعية بحضرموت ، وكتبتها وأنا بمدينة الطائف ثم نشرتها بالقاهرة سنة ١٩٣٤ ، كانت أول تجربة لي في الكتابة للمسرح ، وكان لها صداها في الأوساط الحضرمية منذ ثلاثين عامًا !

وقد تقدم إليّ الأخ الأديب الفاضل الأستاذ علي محمد الصبان مقترحا إعادة طبعها ، ليتاح للأجيال الحضرمية الجديدة الاطلاع عليها ، باعتبارها وثيقة أدبية لمرحلة من مراحل التطور في حياة المجتمع الحضرمي ، فوافقته على ذلك ، شاكرًا له جميل اقتراحه ، راجيًا له التوفيق فيما يتوخاه من خدمة أمتنا العربية .

المؤلف

علي أحمد باكثير

القاهرة

٦ ربيع الثاني ١٣٨٥

٣ أغسطس ١٩٦٥

تصديـــــــر
بقلم الشاعر الكبير الأستاذ النقادة
حسن كامل الصيرفي

ناظم هذه الدرامة الشعرية أديب حضرمي يحمل بين جنبيه قلبا خفاقًا ينزع إلى الحرية .. ويصبو إلى رحابها الواسعة المترامية الأكناف ، ولهذه الرغبة نراه يطوي الأنجاد والوهاد ويركب متون البحار حتى يبلغ أرض الكنانة ، رسولا من مستقبل حضرموت إلى حاضر مصر ، لينقل إلى وطنه قبساً من نور بهيّ .

هو شعلة من الحياة التي تعرف حقها من الوجود الذي يأبى الركود ، ولهذا تجدّدت فيه الروح الناهضة ، التي أوحت إليه بهذه الدرامة .

هو شاب مخلص لوطنه كل الإخلاص ، فإذا كان ثائرا على حالة وطنه الراهنة ، فإنما هذه الثورة عين الإخلاص .. وما ثورته إلا الرغبة في الإصلاح.

تلمح في درامته صورا سريعة العرض تمثل ذلك القطر الشقيق رازحًا تحت أعباء ثقيلة من بدع متوارثة ، خلفتها عصور مظلمة ، وسياسة غريبة

عجيبة ، تتحكم في مصير شعب ضعيف خدرته بالعقائد والأوهام ، فسيرته في سبلها طائعا طاعة عمياء ، وليس أقدر من العقائد على أسر النفوس التي تضعها الفطرة في دائرة محدودة ، وتسهل تفكيرها ، وتقصر مدى نظرتها .
فهناك فئة من الناس تتزعم الحياة الاجتماعية وتسيطر على الناس بتهويشها وخداعها ، وقد عرضت الدرامة صورا لها ساخرة منها هذه الأبيات :

وليُّ الله ذو الجبـو ... ة والأرديـة الخضـر
وذو المسـواك في العمـة ... قـد أربـى علـى الشـبر
ورب السـبحة الغـارق ... في التسـبيح والذكـر
بهـا يذكـر في النـاس ... ولا يذكـر في السـرِّ

يرجع ناظم هذه الدرامة جهل شعبه إلى جهل المرأة ، فهو يريدها متعلمة كشقيقاتها الشرقيات اللاتي عرفن مكانتهن من شعوبهن ، فنهضن يطلبن حقوقهن ، فكان لتلك النهضة أثرها في شعوبهن .
وبطل درامته (الشاعر المصلح) الذي جعله المؤلف شابًا مجددا يسخط على المسيطرين بخداعهم وأضاليلهم على عقول الشعب ، ويحاول جهد استطاعته بث أفكار جديدة في بيئته فلا يلاقي إلا عنتا ، ولا يوصف إلا بالكفر والإلحاد .
هذا البطل يجتهد أن يوصل أفكاره إلى الشعب عن طريق المرأة ، لأن المرأة كما يقول المؤلف على لسان سيدة من أشخاص درامته :
صاحبات الزمان نحنُ .... حياة الناس فيه والموت في أيدينا !

وهذا البطل موزّع القلب والفكر بين حبين قاسيين .. حب لوطنه ورغبة في تحريره من الأوهام وترقيته إلى مصاف البلاد الراقية ، وحب لفتاة تملك عليه شعاب قلبه .

وبين هذه الحياة المضطربة من صدمات عنيفة ، ومن جحود وإنكار ، ومن قلق وكفاح ، ومن رغبة وخفوق ، يرينا المؤلف صورًا من الحياة الاجتماعية في عاصمة الأحقاف ، كل ذلك في أسلوب طلي بسيط .

على أن المؤلف ــ بالرغم من هذه الثورة المضطرمة في نفسه ــ لم يزل يرفق ببيئته ، فهو يلطف من حدة أفكاره بألفاظ فريئة إلى روح الشعب ، فيها من إطفاء الغضبة ما يمنع سخط الساخطين وحنقهم . وله الحق في ذلك فهو يلجأ إلى مثل تلك الألفاظ لكي يستطيع بث آرائه وأفكاره .

وأرى أنه لو ختم درامته بغير ما خُتمت به لكان ذلك أشد وقعًا وأجلّ أثرًا ؛ فلقد كان يجدر به أن يختتمها بالحياة لا بالموت . وبعد فأتمنى له حين يعود إلى وطنه فيقوم بهذا الدور ، ويبث فيه الأفكار النافعة والآراء الصائبة ما تمتلئ به روحه ويزخر به إيمانه ، وأن يجعل اللّٰه خاتمة دوره الظفر والنصر وتحقيق الأماني .

القاهرة ٢٩ صفر ١٣٥٣ ــ ١٢ يونية ١٩٣٤

حسن كامل الصيرفي

الإهـــــــداء

إلى مصدر الوحي الأول !

إلى ملاكي الجميل الذي سبقني إلى عالم الخلود ، وكلما ذكرته أوحى إليّ !

وإلى الشعب الحضرمي الذي أحبه وأعيش من أجله ، أهدي :

هذه الأقصوصة

كذكرى خالدة للأول .

وذكرى نافعة للثاني .

علي أحمد باكثير

تمهـــيد

مكان الرواية	:	مدينة (سيوون) عاصمة حضرموت الداخل
زمن الرواية	:	العصر الحاضر
أشخاص الرواية	:	

همـــــام	ـ	بطل الرواية
حُســــن	ـ	حبيبة همام
محمـــــد	ـ	صديق همام ونصيره في المبدأ
علويـــــة	ـ	نصيرة وحبيبة محمد
زهـــــراء	ـ	أخت همام
خديجـــــة	ـ	أم حُسن
شـــهاب	ـ	عم حُسن ووكيل أبيها
ولـــي الله	ـ	خرافي دجال يتجر بدينه
ســـالم	ـ	صديق محمد
الأمـير أمجـد	ـ	أمير البلاد
بكـــــر	ـ	غني يطلب يد حُسن

أحمد		جماعة من الأدباء
عقيل		
ابن عيسى		
عبد الله المغني		
عامر	—	بدوي رافق هماما في طريقه إلى الساحل
ناهية		أخوات عامر البدوي
سعدى		
لبنى		

نكرات مسرحية — رجال وشيوخ ونساء ووصائف ومغنيات

الفصـــل الأول

« غرفة متوسطة السعة على جوانبها خزائن مملوءة بالكتب، مفروش جانب منها بسجاد رومي ثمين ، وعلى الجانب الثاني منضدة صغيرة عليها أدوات الكتابة يحيط بها خمسة كراسي بسيطة . ويظهر همام في الجانب المفروش من الغرفة متمددًا واهي الأركان ، يئن أنينًا خفيًا يشبه الغمغمة . تدخل عليه زهراء فتعرف ما به وتتجاهل فتسأل » :

المشهـــد الأول

زهراء : أخي ما بـك اليومَ ؟ إني أرا ك قليلَ النشاطِ كثير الضجرْ
أأنت مريضٌ وُقيت الشُّرو ر ، وبلغك الله طولَ العُمُر

هُمام : أي إنَّ بي مرضاً في الفؤا د يا زَهْرُ يُنذِرني بالخطر
ولا تجهلين ماذا بصِنو كِ مما بدا منه أو ما استتر
فماذا وراءكِ ؟ هل من جديـ ـد يخفف من وجديَ المستعِر ؟

زهراء : أخي لا تَخفْ في الهوى أن تخيـ ـبَ؛ وهل يجهلُ الناسُ فضلَ القمر؟
ولا تجعلنَّ ليأسِ إليكَ سبيلا ففي اليأس فوتُ الوطر
أييأسُ مثلكَ وهو الرَّجيح في الكِفَفِ الشائلاتِ الأُخَر؟
فأحرى بغيرك أن يستريحَ إلى اليأس . لا بدَّ أن تنتصِر
كأنّي بحُسْنٍ تُزَفُّ إليكَ عروساً تلمُّ ذيولَ الخفر
تُحيط بها الغانياتُ الحسا نُ كالبدرِ بين النجوم الزهرْ

كـأنيّ بأبياتِنـا قـد غـدتْ تُصفّـق بـالفرَح المزدهِـر
وأنتَ عـروسٌ تُحيِّي الوفـو دَ وتخطُـر بين صفـوف الزُّمَـر

هُمـام : أزهـراء لا عَدِمَتْـكِ الديـا رُ ، حديثُك يقشع عني الكَـدر
لأنـتِ العـزاء إذا مـا أَتيـتِ وأنـتِ الهنـاء وأنـتِ الحَـبَرْ[1]
فأيـن الكتابُ ؟ أما تقرئـينَ ؟

زهراء : بلى ! ذا الكتاب معي قـد حضر
كتـاب كريـمٌ خليـق بـه بـأن يكتبـوه بنـور البَصَـرْ
«بلوغ المرام» و«سُبْل السـلا م» عليـه تُحَجَّـل منـه الغُـرَرْ
أحـاديثُ طـه وآيُ الكتـا ب تلألَؤُ فيهـا خِـلال السَّـطر
وأقوال مُجتهدي الصحب والأئمّـ ـةِ مـن كـل حِـبْرٍ أبـر
فيـأخذُ منهـا الفتـى مـا صفـا ويـترك منهـا الفتـى مـا كـدَرْ
ومَنْ لاذَ مِـن بعدهـا بالهـوى فإن الجحـيمَ هـي المستقَـرْ

« يتبسم همام إعجابًا بهذه الـروح الإصلاحيـة الـتي وفـق لبدرها في نفس أختـه . وتعرف هـي أن في مثـل هـذا الحديـث تسلية له وتهدئة لأفكاره المضطربة فتطّرد في حديثها » :

فـلا سَـلِمت كتُـب الجـامدينَ ولا فـاز قارئهـا بـالوطر
صَحـائفُ لا روحَ فيهـا ولا يَجـول بهـا ذكـرُ خـير البَشـر
يُصـوَّر فيهـا مُحـالُ الأمـو ر ، ويُـترك فيها مُهِـمُّ الصُّـور !
فتلـك الجواهـر أيـن الرّمـا لُ منهـا وأين خسيس الحجـر ؟

---

(١) الحبر : السرور

« يستولى على همام الانبساط ويأمر أخته بالقراءة فتقرأ فصلاً من الكتاب يقول لها بعد الانتهاء »

صار فرضًا عليك أن تنشُرى هـــ ـــذا الهـدى فى جماعة النسـوان
فهُدى الشّعبِ من هـدى أُمّهــ ـات الشعب فى كل موطـن وزمـان
وبناتُ الأحقافِ أولى بأن يحذِقــ ـــن شتّى العلـوم والعرفـــان
وبـــأن يَـطْهــرنَ مـــن لُـــوَ ثِ الأوهـام ممـا يخـلُّ بالإيمـان
فيريـــن الحياةَ مـن غير معـــنىً غير تـلك الحيـاة وهـى معانى !

زهـراء :لِتطِب يـا همـامُ نفسًـا فمـا تـر جـو سأسْـعى فيـه بغـيرتوان
ولـقد سرَّنـى استـمـاعُ صديقا تى لقـولى وقْدرهُـن مـكـانــى

هُـمـام :بـارك اللّه فـى الصِّغـار ففيهـنَّ قَبـولٌ للحـــق إمّـــا دُعينـــا
إنّمـا الشّرُّ فـى العجـائز يجمُد نً جُمـود الحصى فلايهتـدينـا !

زهـراء :نحـن بـالأمس ثُلـةٌ ضمنـا مجلسُ عُـرس فـى بيـت جـار أبينـا
ولدينـا شـريفةُ جمعَـتْ حُسنًـا ولطفًـا جمًّـا وعقـلاً رصينـا
سمعَتْنى ـ ولستُ أعرفـهـا ـ ألـ ـقى على الحاضرات درسًا مبينا
سُقْتُ من أخبار الشـهيراتِ فـى الإسـلام مـا ردّهـن لى يُصغينـا
تـاقهن الحديـث عـن سـيّداتٍ فقُن بعـضَ الرجـال علمـا ودينـا
ثـم حرّضتهُـــن أن يتشـــبّهن بتلـــك الشـمـوس أو يقتدينـــا
قـلتُ لـيس الرجالُ أولى بكسـ ـب العلـم منـا فإننـا مُسـتوونا
ومـن العلـم مـا يُعرّفنـا الديـن ومنـه مـا سـدّ فإننـا مُسـتوونا
وأهـــم الأمـــور تربيـــةُ الأو لاد كـى ينشـأوا مـن العاملينـا
صاحباتُ الزمان نحن ! حياة النـ ـناس فيـه والموتُ فـى أيدينـا !
إن نـشـأ فـالـورى بـنـا سُعـداء وشـقـاءٌ حيـاتـهـم إن شِينـا

فعلينـــــا لربنـــــا واجبـــــاتٌ ليس نبرا مـن إثمها مـا بقينـا
كيـف نستطيعُ بالجهالـةِ يومـا أن نـؤدي أمانــة الله فينــا ؟
صِحْنَ في أسماع الرجال : أليــ ـس العلم فرضًا على النساء مبينا؟
فيم غادرتُم البنات على جهـل وقمتـم تعلّمـون البنينـا ؟
هـل أقمتـم مدارسًـا للواتـي إذ أقمتـم مدارسًـا للذينـا ؟

* * *

فتدنـت تلـك الشَّـريفة مـني وحَبَتْـني مـن الثنـاء فنونـا
ثـم قـالت : عمّن تلقَيتِ هـذا ؟ قلت عن صِنْويَ الذي تعرفينا
عن همـامٍ . قالت همامٌ أضحى بحُسْنِ بيـن الـورى مفتونـا ؟
والـذي يذكـرون عنـه ابتداعًـا بئس هـذا الـورى ومـا يَفترونـا !
إنني قد أنستُ من قولك السّا لـفِ روحًـا فيّاضـة ويقينـا
فتساءلتُ مَن يكونُ الذي لقّـ ـنَ هـذي الهُـدى تلقينـا ؟
فذَكَرْتِ امـرءًا جُعلتُ فِـدا هُ دونَ مـا عابَـهُ بـه الجاهلونـا !
ليتنـي أستطيع أن أتلقّى عنـ ـه شيئًا ! أنّـي لِـذا أن يكونـا
قُلت : نفسي فداكِ يا ابنة طه أنتـم آلُ بيتـه الأكرمونـا
ليـس بِدعًـا أن تنصـروا سنـ ـةَ الهادي بنصرهـا قمِنونـا
إنما البدعُ أن يكون بنو المخـ ـتار عن هديه من الناكبينا !
غير أن ما رأيتُ مثلكِ في نسـ ـوة «سَيُّونَ» تعشقُ المصلحينا
إن سرًّا في الأمر يَحْسنُ لو أد ريـه ، قـالت يَسرُّني أن يَبينـا
نحن من بيت سادةٍ يكرهُ الدجْـ ـل ويأبـى من الأمـور الدُّونا

جدُنا الأكبر الشريف « عقيل »
سنَّ نهج الهدى لنا ما حيينا
عندنا من آثاره « سيفهُ المسلو
ل » يَفْري أوهامهم والظنونا

* * *

بلغي عني السلام هماماً ورجائي إياه في الناجحينا
وغداً نلتقي ويحرسك الرحمـ ـنُ قلت الرحمن يبقيك فينا
همام : بارك الله فيك ! هذى فتاة من سَليل الأفاضل الأطهرينا
جدُّها كان في الحجاز مناراً للمعالي يَؤمُّه الطالبونا
ذبَّ عن سنَّةِ النبي ولاقى من بني قومه أذىً وفنونا
رَبِّ آمنتُ بالوزراتةِ ! أنتَ الله أرسلتها لنا قانونا
هذه روح جدّها ، ربِّ وفّقـ ـها وآزر بسعيها النّاهضينا
« يلتفت إلى زهراء مسائلا » :
ألديها زوجٌ ؟
زهراء : قضى زوجُها النحـ ـب صغيراً لم يبلغ العشرينا !
وقضى قبل زوجها أبواها فهي ثكلى تَعيش عيشاً حزينا
خَبرتني عنها سعيدة إذ كانت قد استُخْدِمتْ لديهم سنينا
همام : مَن يليها إذن ؟
زهراء : شقيق أبيه عالها رغم كونه مسكينا
همام : ذكّرينا لكي نواسيَه القَيْـ ـنة بعد الأخرى .
زهراء أصبت قمينا

همــام : لم تَجدْ بعد زوجهــا خاطبًا ؟

زهراء : لا .

همــام : أو ليست حُسْنا كمـا تذكرينا ؟

زهراء : بـل هـي الحُسـن كلُّـه ــ عَلِـمَ اللّٰه ــ متاع الرائـين والسـامعينا !

همــام : غير أن الشَّبابَ في هـذه الأنحــــاء بالحسـن ليـس يَحْتفلونــا

إنمـا ينظـرون للمــال فالمــال هـو الزوجـةُ الـتي يخطبونـا

ويَـرَوْنَ الكمـالَ في ذات أمٍ لا يُـرَى زوجُ بنتهـا مغبونـا

تتوخى رِضـاهُ في كـل حـين فتريــه مـن الطعــام فنونـا

فكأن لم يكن لديهم من الحبِّ سـوى مـا يسـدُّ منهـم بطونـا

المشهـــد الثانـــي

« في القاعة الكبرى للمدرسة حيث تقام الحفلة السنوية وقد حضر إليها الناس من كل الطبقات ليشاهدوا التلامذة ويسمعوا خطبهم ومحاوراتهم .

التلاميذ في وسط القاعة متميزين عن الناس والناس محيطون بهم . همام يقوم بعد فراغ التلاميذ ويعتلي منصة الخطابة » .

يـا بـني مدرسـتي إنـي لكـم نـاصحٌ يصفيكـم النُصـحَ أمـين

لَبنـاتُ الشّـعب أنتـم فليكـن كلُّها مـن ذلـك الصّلـب المتـين

إنَّ برنامــجَ تدريسِـكُمْ ليس برنامـج قـومٍ مرتقـين

تُرهِقون النشءَ بالحفظ فمِن حفظ تقريرٍ إلى حفظِ متون
ليس في ذاكمْ لهم من صالحٍ إنه يقتل فهمَ الناشئين
فدعوا الحشو وربُّوا فيهم ملكات الحذق في كل الفنون
استقوا التوحيدَ من ينبوعه وانبذوا كتب الصفات الأربعين
لا تزيد النفس إلا حيرةً لا كأسلوب الكتاب المستبين
لم تؤلف لكم هاتيك ، بل ألفوها لحِجَاج الملحدين
واقصدوا في الفقه لا يأخذكم ليس في الفقه غذاء الناهضين !!

« أحد الشيوخ يقوم ويحاول تسكيت همام ويصيح » :

يا عبادَ اللّهِ ! هذا مارقٌ يندب الناس إلى دينٍ جديد
أسكتوه أسكتوه ! إنه يا عباد الله شيطان مريد

شيخ آخر : هذا وهابيٌّ !

ثالث : هذا معتزليٌّ !

رابع : سدُّوا فاه

خامس : لا تدعوه يغوي الناسَ !

سادس : هذا ما كنا نخشاه !

« همام رافعاً صوته في شيء من الغضب » :

أنا لا أصغي لتسكيت امرئ أنا لا أخشى صياح الصائحين
خطبتي لا بدّ من إتمامها

شيخ متنور : أتمم الخطبة إنا سامعون

لا تُبل ؛ من رام أن يقطعها فليقم إن شاء في المنصرفين

همام : أنا لم أدْعُ إلى غير الهُدَى وإلى غير نهُوض المسلمين
أنقِمْتم دعوة الناس إلى سُنّة المختار خير المرسلين

« ملتفتا إلى الشباب »

اسمعوني يا شبابَ الحي ، لا يُقصكم عني مقالُ الجامدين !
.. .. ليس في الفقه غذاء الناهضين !
اقرأ وافقَه حديثَ المصطفى تعبروا الشكَّ إلى برد اليقين
لا تهابوا اليومَ أن تجتهدوا إن سرَّ العلم للمجتهدين !!
وكتاب اللهِ باقٍ خالدٌ تنجلي آياته في كلِّ حِين
ادرسوه درس أحياء ولا تدرسوه دَرْس قوم ميّتين
ادرسوه وفْقَ نهج خَطّه (مصلِح الإسلام[1]) ذو الفضل المبين
إنه يشْعِل في أنفسكم جذوةَ الدين وعِزّ المؤمنين
إنه يبعث في أرواحكم قوةً هائلةً لا تستكين
فَتح الدنيا بها أسلافنا من ربَى الغرب إلى السور المكين
وأضعناها فهُنّا بعدها وغدونا مُضْغةً للآكلين
ليست الأخلاق لِينًا في الخُطى وخضوعًا هو للنّفسِ مهين
إنما الأخلاق أن لا تُبطِنوا غير ما للنّاسِ أنتم تظهرون
إنما الأخلاق أن لا تتركوا نصرةَ الحقّ للَوم اللائمين
رفعَ الإسلام من أنفسِكم فارفعوها عن دعاء المقْبَرين
لا تذلّوا لسِوَى الله ، ولا تخضعوا إلا لربّ العالمين

---

(١) هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

« أحد الحاضرين لصاحبه » :

للّـــــهِ مـــــا أفصَحـــــه !

الآخر : والحقُّ ــ واللّهِ ــ مَعَـــــه !

الأول : لكـــــن هـــــؤلاء لا يبغوننـــــا أن نســـــمَعه

الثاني : أقوالـــــــه مؤلمـــــةٌ لهـــــؤلاء موجِعَــــــه

الأول : لأنهـــا تقطـــعَ مـــا كـــان لهـــم مـــن منفعـــه

همام : حَكموا الأنصـاف فيمـا بينكـم لا يكـن قـومٌ لقـوم حـاقرين

فالمســـاواة علـــى أعْدَلِهـــا ميزة الإسـلام عنـد البـاحثين !

وأخـــو الحـــق إذا لم يُعْطَـــهُ أخـــذ الحـــق انتهابًـا بـــاليمين

* * *

المشهـــد الثالـــث

« بهو كبير ــ في دار أحـد أدبـاء البلـد ــ مفـروش بالبسـط الجميلة من المخمل الثمين ، منقوشة جدرانه برسوم فنية جميلة للأزهار المختلفة تحملها الأغصان الخضر . جماعة من الأدباء في المجلس بينهم كثير من أتباعهم المتأدبين يشربون ويتحدثون. أمامهم عـدة شـاي مصقولـة يخطـف بريقهـا الأبصـار يتولاهـا أحدهم . يدخل همام مسلمًا » .

همام : عمـــوا مســـاءً يـــا أصدقـــائي

الحاضرون : مسِّـــيت بالخـــير والهنـــاءِ

أهــلاً وسهــلاً

أحمد : (أحد الأدباء) هذا ابن عيسى يــذم فينــا أبــا العــلاءِ

همام : في الديــن أو في البيــان ؟

أحمد : بــل في كــل الشـؤون علــى الســواء

همام : لا يا ابن عيسى جزت المدى لا بــدَّ مــن العــدل في القضــاء

« ملتفتًا إلى أحمد »

وأنــتَ مــاذا تقــولُ فيــه ؟

أحمد : إنـــي أراهُ في الأتقيـــاء

همام : كِلاكُمـا قـد غــلا ، فهــذا ذمَّ ، وذا لَــجَّ في في الثنــاء

بــل هــو في شــعرهِ إمــامٌ جَــدَّد نهجًــا للشــعراء

لكنّــه كــان في ارتيــابٍ مــن ديــن مــولاه وامــتِراء

فقــال مــا قــال غــيرَ خــائفٍ ولا مُــداجٍ ولا مُــراءِ

ومُمكــنٌ أنَّــه حُطِــي في أخــرى لياليــه بــاهتداء

فرُبَّ شــكٍ أفْضــى بمــولا ه ـ بعد ما حــار ـ للجــلاء

« تدار كؤوس الشاي ويأخذ همام كأسًا »

شــرابُ الشــايِ خــيرٌ لي مــن الدنيــا ومــا فيهــا !

إذا مــا أقبلــت كــأسٌ كخــزدٍ في تهاديهــا

قــولى الهــم مــن نفســي ودانــت لي أمانيهــا !

عرفتُــم مــنْ هــو القــائلُ هــذا الشِّــعرَ في الشــايِ ؟

يــرى في الشــايِ دنيــاه فمــا صِحّــةُ ذا الــراي ؟

عقيل (أحد الأدباء) :

لا تعجبنّ همــامُ تلك حقيقــةٌ كالشمــس فيها الشاربــون سواءُ

ما قيمة الدنيا وما فيها إذا ما لم يكن شايٌ ولا ندماء ؟

همام : إنَّ في الشاي عزاءً لصريع الهم والغمْ
لكئيب أو حزين أو عميدٍ أو متيّم
حاز لُطفَ الخمر إلا أنه غير محرّم ؟
من صفاء اللون في العين وحُسنِ الذوق في الفم
هو مَسلاة أديبٍ فيه من بلواه مَعْصَم
ورَسولٌ للتآخي يجمع الناس وينظِم
غير أنّ القصدَ في الأشيا ء منجاةٌ ومَغْنم
فغلَوْنا فيه حتى صار فينا يتحكّم
وغدا وهو على القو ت الضروري مُقَدّم !
وشربناه بلا وزنٍ وتقدير مُنظَّم
فلكَمْ يَسْلبنا الما لَ وكم يُسقِمنا كم
ولكَمْ أنحى على بيتِ كريم فتهدّم
ولكم عائلةٍ جرّ عها صابًا وعلقم
ولقد زاد بلاءً أنه في قُطرنا عَمْ
فهو في القصر ، وفي البيـ ـت ، وفي الكوخ المرمرم !!

عقيل ـ **ملتفتًا إلى «عبد الله» المغني :**

يا بلبل الأفراح والسُّرور اصدَحْ بمُوْسيقاك في الحضور
غن لنا شعر (أبي كثير) في الشاي وانشُر ميت القبور !

(يتهيأ المغني ثم يرفع عقيرته يتغني بصوته الجميل ولحنه الطروب) :

يا صاحب القلب الشقي بقومه إرفق بهذا القلب لا يتحطمِ !

اخـــدم بلادك ما استطعـت وكل إلى
مـــــولاك ما لم تستطعـــه وسلِّـــمِ
ومن الجفـا أن لا تحـيي مثلمـــا حيّاك وجـه العيـد مبتســمَ الفمِ
ذَرْ بعضَ همـــك واقض بعض حقوقــه
لا بـــــدَّ للمحــــزون من مُتَبسَّـــم !
واقـــذف شياطينَ الهمـــــوم بأكـــؤس
تنفـــضُّ من (بُـــرَّاد) شاي مُعلَـم[1]
مخضـرةٍ جنباتـه فـاعجب لــه من جنـة خضـراء فـوق جهنـمِ !
شاي يفـوز من احتسـاه بلثمــةٍ من كل خدٍ في الحسان ومبسمِ !
من (باسلامةَ) مثـــل ذوب التـبر أوْ
من (مشعبيّ) مثل لـــون العنــــدمِ[2]
مثـل الطـلا في لونهـا وصفائهـا ونقيضهـا في رجسـها والمـــأثمِ
لا نقـصَ عنهـا فيـــه إلا أنـــه حُلــوُ المــذاق وأنـــه لم يحـــرُمِ
فاشربه متخذاً نديمَــك كـل ذي أدبٍ متـــى نادمتَـــه لا تنـــدمِ

همام : أحسنت يا بلبل الوادي !

آخر : أجـــدت

آخر : لقد رَوَّحــ ــتَ بـالصّوت أكبادًا وأرواحــا

همام : وقـد تفـرد بالإحسـان شــاعرُنا إذ ضمَّن الشعر توصيفًا وإصلاحا
وأنصِتوا لشاعـــر من شعرائكـم سَـــرِيْ
« الحامديّ » يصف الشاي بوصف عبقري !

---

(١) البراد يطلق هناك على إبريق الشاي .
(٢) صنفان من الشاي اشتهرا في حضرموت بهذين الاسمين .

روّق لها مــاء الغمــام وهاتهــا لي والحبــاب يجـول في جنباتهــا
صهباء ما عبثت بها يدُ عاصــر ما عاشــرَتْ إلا أكــفَّ سُقاتِها
من جيّــد الشــاي استحال عصــيرها
فغـدت تحاكي الشهــب في جاماتهــا
قـــد راق منظرهــا ورق زجاجــها
فلِعلـــــــةٍ لم يُدهقـــوا كاساتهــا
لولا انتصـــافُ الكاس خيّــل أنهــا
في كـــف ساقيهــا تقــوم بذاتها !
وإذا الهمومِ على النديـــم تكاثفــت
وبــدت أشعتها جلت ظلماتهــا !

حقًــا لدينــا نهضــةٌ أدبيّـــــةٌ لا تُنكـــــرُ
عَمَــرت نوادينــا ، بهــا يستبشــــر المستبشــــر
نشــطَ البيــانُ فشــاعرٌ يشــدو وآخــر ينــثر
هــذا لعمــري مُــؤذِنٌ بنهوضنــــا ومبشِّـــــر

(يتنهد)

لكــنَّ .. مَشْــيُ العِلـم في أحيائنــــا متعـــــثِّر !
جَمَد (الفقيـه) على متو ن بالشُّـــروحِ تُفسَّــــرُ
وكأنهــــا التـــنزيل أو هــي بالقداسـة أجــدرُ !!
ويرتّــل (النَّحـــوي) كُتــبَ خلافِــهِ ويقــرِّرُ
يمضــي عليــه عمــره لا يســـتطيع يُعَـــبِّرُ !
أمــا (الحديـث فــإنهم يتلونـــه كـــي يؤجــروا
ووظيفة (الذكر الحكيــ ـم) علـى القبـور يكـرّرُ !
أمّا سوى هــذي العلـو م فأمــــره مُستَحقَـــرُ

كيـف النهـوض لأمـة   لا علـمَ فيهـا يُذكَـر ؟
في الديـن والدنيـا جميـ   ـعًا سـيرُها مُتقهقِـر !

أحد المتأدبين (**معترضًا**) :

إنّـا علينـا السـعي للـ   ـأخرَى ؛ وللدنيـا سـوانا !
أو ليستِ الدنيـا بسِجْـ   ـنِ المؤمنين كمـا أتانـا ؟

همام : الله يـأمر أن نكـو   نَ أجلَّ أهل الأرض شـانا !
وأشـدهم بأسًـا وأر   فعهـم وأعلاهـم مكانـا
كيمـا نقيـم العـدل في الـ   ـدّنيا ونملأهـا أمانـا
فـإذا اتّبعنـا مـا يقـولُ   فسـوف يُدخِلنـا الجنانـا
فـنرى بهـا الدنيـا كسجـ   ـنٍ لا نـرى فيهـا رضانـا
والدين بالدنيـا فليـس يقـ   ـومُ مـا ضعُفَـت قُوانـا
وطَبيعـةُ الإسـلام لا   ترضـى المذلـةَ والهوانـا
هـذا المـرادُ ، وحسـبُنا   قـرآنُ مولانـا بيانـا

« **يلتفت إلى جماعة من الشـبان العـاطلين مـن أبنـاء السـادة والمشايخ كانوا قد حضروا المجلس** » :

يا بني الأشـراف قومـوا وانهضـوا
فكفـى ما كان منكـم من كَسَـلْ
اعملـوا لا تتوانَـوْا واعلمـوا   أنّ هـذا دينَنـا ديـنُ عمـل
بينمـا النـاسُ علـى أعمـالهم   بـين تشـمير وجـدّ مكتمِـل
تتهـادَوْن كأسـراب القطـا   وتمشّـوْن كقُطعـان الهمَـل !؟
أفـلا يغشاكـم فيـه حيًا ؟   أو لا يلحقكـم فيه خجَـل ؟

أحدهم : إنهــم أشــياخنا ينهَوْنَنــا عـن تعاطينـا لأعمــال السـفل
فعلينــا العلــم أن نخدمــه وسيَغْنى من على اللّــه اتكل !

همام : إن هـذا الـرأي منهــم خطـل وأراكــم لا تقِــرون الخطــل
فمتـى عُــدَّ مـن العــار علـى سيّدٍ مسعاه في خير السُّبُل ؟
يجلب الخـير إلى أهليـه مِـنْ والــدٍ أعمَــى وأمٍ تبتهـــل
وأخيَّــاتٍ علـــى أوجههــا كمُـدة اليـأس ولألاءُ الأمــل !
تتمنـى مـا لــدى جاراتهــا مـن أثـاث وحلُــيّ وحُلـل
أو لم يكتســب المختــار في عهده والآل والصحب الأول؟
طـالب العلـم ولا كسـبَ لـه بسـؤال النـاس لا بُـدَّ يــذِل
ليس من لم يكتســب متكـلا إنما الكاسـب عـين المتّكل !

* * *

أبـــني الرســـول تعلمـــوا وتدبـــروا سُـــنن الحيـــاه
لا تجمــــدوا ! إن الجمـــود ســـبيل من كـــره النجـــاه

* * *

أســـلافكم وجدودكـــم شـهدوا عصـورًا غـير هـــذا
فلو انهـم شهــدوه ما انـتبـ ــذوا عــن الدنيــا انتبــاذا

* * *

لا تجعلــــوا أعمـــــالهم حججًـا ، ولكــن محِّصوهــا
فخــذوا محاســنها وخلّــــ ــوا ما تــرون الريْــبَ فيها

* * *

لا بـأس مـن تمجيـد ذكـــ ـــراهم ففي التمجيد ذكـرى !
كم حاضـرٍ تحـت الرمـــو س أفـادَهُ ماضيـــه نشـــرا

* * *

لكـن بحيـثُ يُهيــب نحـــ ـــو المجـد منطلــقَ القيــودِ
العصــر غـــير العصر والــ ــأشبال أبنــاءُ الأســـودِ !

* * *

كـــانوا هــداة النـــاس بـــل كـــانوا ملائكـــة التُّقـــى
قـد أكـــبروا شــــأنَ الفنا ءِ وأصغـــروا شـــأن البقـــا

* * *

لمـــا ســـرت رُوحُ التصـــوّ فِ والتبتّـــــل فيهـــــمُ
مقتــــوا الحيــــاة كأنّهــا أشــــياءُ لا تَعنيهـــــمُ

* * *

فـــالموتُ هَمُّهمـــو ، وغـــا يـــةُ همهـــم دار المـــآبْ
فَعُنُــوا لهـــــذا بالقبـــــو ر ومـــا إليهـــا مـن قِبـاب

* * *

وتعشــقوا الموتـــى فأحـــ ــيَوْا لادّكـــارهم المواســـمْ
يجـــدُون عندهـــم العـــزا عن عيش ســوءٍ غـــير دائـــم

* * *

فقفـــوا أمـــامهمُ خشـــو عًـــا في ســـكون واحـــترام
فقـــد انقضـــت أدوارُهـــم فعليهـــمُ أزكى الســـــلام

* * *

شَهدوا زماناً فيه قد غلب الجمودُ على ذويه
أنلومهم ظلماً لأنْ كانوا فريقاً من بنيه !؟

* * *

إنا لنظلمهم إذن وهم التّقاة الصالحون
راموا رضى مولاهمُ في كل شيء يعملون

* * *

لكن عليكم أن تكونوا للحقيقة طالبينا
لا تقبلوا ما جاءكم عن هؤلاء مُسَلِّمينا

* * *

وتدافِعوا عنه على جهلٍ بحق أو بباطل
ليسوا بمعصومين عن خطأٍ وإن كانوا أفاضل

* * *

اليوم قامت نهضةٌ في عالم الإسلام حيَّهْ
وسرت إلى الدين الحنيف حياتُه الأولى القويّهْ

* * *

شبّتْ بها الحربُ الضّرُو س على الطوارئ والبدعْ
مما به الأهواء قِدْ مًا ألصقته والشِّيَعْ

* * *

فلقد هوَتْ بالمسلمين إلى الحضيض الأوهدِ
وقضت على أوطانِهم للمستبدِّ المعتدي

* * *

لا بـــدّ مـــن هـــذا الرجـــو   ع إلى الكتـــاب الخـــــالد
وإلى هُــدَى المختـــار والـــ   ـسَّلف الحكيـم الرّاشـــــد

* * *

فعليكمـــــوا أن تدخلـــوا   هـــذا الغمـــار ولا تكعُّـــوا
أنتـــم بنـــو الهـــادي فمـــا   في سبقكـم للفضـــل بِـــدْعُ

* * *

كونـــوا مِثـــال النُّبـــل كـــو   نـــوا قـــادةً للمســـلمين
والديـن كونـــوا في طَليـــ   ـعة ناصريـــه المصلحـــين

* * *

واقضـوا علـى الأوهـام لا   تَجـــدَنَّ بينكـــم نصـــيرا
ومـتى دعـــوتم للصـــلاح   هديتـــم بشـــرًا كثـــيرا !

* * *

وتعلّمـــوا أن الـــورى   في شِـــرعة الهـــادي ســـواءْ
ما الفضـــل إلا بالتّقـــى   والكـــل من طـــين ومـــاءْ

* * *

أمـــا التّقـــاليد القديمـــه   فاتركوهـــــا أجمعـــــا
أو لم تكُـــنْ للفتنـــةِ الـــ   ـعمياءِ فيكـــم مهيعـــا ؟

* * *

عـادٌ جـرت قِدْمـا يطـول بـــ   ـــها القـويُّ علـى الضعيـفْ
ألعصر يمقتهـا ، وليس يقـــ   ـــرّها الديـــن الحَنيـــفْ !

(يرى ثلة منهم يتهامسون)

فيـــمَ تهامَســـون ؟   ومـــمّ تعجبـــون ؟

(ينظر بعضهم إلى بعض ويجيب أحدهم) :

القـــــوم لِلَّـــــــذي قـــد قلــتَ مُنكــرون !

آخر : يقولـــون ترشَّـــدت !

همام : وهــل بالرُّشْــدِ مِـــنْ لـــوم ؟

فهـــذا (قُطُـــب الإرشـــا د) ربّ الفضـــل في القـــوم !

أحدهم : نحن نعنى فئة النصب التي أبغضتنا آل بيت المصطفى !

جاهرتنا بالعِدا في (جـاوةٍ) وبوادي (حضرموت) في الجفا

همام : سُؤتم ظنًا ، ومـا زلتـم لمـن جـاءكم بـالنصح تبدون الجفـا

إنـي من أعظـم النـاس لِمـا كان من شَغْبٍ (بجاوا) أسـفا

وأراهــا ســبة تجعلُنــا في عيون النـاس بين السُخفا

غير أنـي لا أرى أعظـم أسـ ـبابها إلا جمــودَ الشُــرفا !

وقفوا في وجـه سيْلٍ لـو تولَّـ ـوه بالحُسنى لأروى وشـفى

فطغـت أمواجـه ، حتـى لقـد جرف الأسـداد فيما جرفا !!

حكّموا الأهواءَ ثم انطلقوا بالأهـاجي يمـلأون الصحفـا

ونَسُـوا أن المبادي لا تـرى نُجْحها مـا لم تـؤاخ الشَّـرفا

* * *

أنـــا لا أعـــرف (إرشـــاديَّةً) لاَ ولاَ (رابطـــةً) أو جنفـــا

إنمـــا أعـــرف (إســـلاميةً) تجمع النـاس على عهـد الصفـا

تجعـل النـاسَ سـواءً لا تـرى فيهـم ربًّـا ولا مسـتضعفا

أنـــا لا أعـــرف إلا أننـــا قد غوينـا مـذ هجرنـا المصحفـا

أنـــا لا أعـــرف إلا أننـا نشــر الجهـــلُ علينا السُّـدَفا

فغدا العُـــرفُ لدينا مُنكـــرًا وغـــدا المنكرُ فينـــا عُرُفـــا

* * *

أنـــا لا أعـــرف إلاَ دعـــوةً (لجمـال الديـن) شقّت غُلفا
تنـدب النـاس إلى ديـن الهـدى مثلمـا كـان بعهـد المصطفـى
لا خرافـاتٌ وأوهـــامٌ ، ولا بـدَعٌ تحســب فيــه زلفــا
تفتــح العلــم علــى أبوابــه في وجـوه المســلمين الحنفــا
ليكونـوا سـادة الدنيـا ــ كمـا وعـد الله ــ عليهـا خُلفـا
ولقـــد أيّدهـــا تلميـــذه « عبده » فيما دعـا أو ألّفـا
بــثّ روح الحــق في أتباعــه فغــدوا فينـا غيوثًـا وكُفـا
فلتبــثّ الــروح فينــا هــذه في إخــاءٍ ووفــاق ووفـــا
لنحوز الفـوز في الأخرى وفي هــذه الدنيا المقـام الأشرفـا

* * *

يا بـــني الأحقـــاف توبـــوا للهـــدى
واتبعوا (الذكـر) ولـــوذوا (بالسـنن)
وانشـــروا العرفـــان في قطركـــم
واستغلـــوه وأحيـــوا كل فــــنّ
وتناســــوا ما مضـــى وامتزجـــوا
وارحضـــوا الأحقـــاد عنكم والإحـــن

* * *

بينكم جنـــس ، وديـــن جامـــع
ولســـان وعهـــود ووطـــن

(ســـتار)

الفصل الثاني

المشهد الأول

« همام في مكتبه الذي يستقبل أصدقاءه فيه يتصفح أوراقا له ورسائل . يستأذن عليه « محمد » .. يتعانقان ثم يجلسان على كرسيين متقابلين تفصل بينهما المنضدة .

همام : أخي ! أين تغيّبت ؟ فعهدي بك من شهر
جرت في الربع أحداثٌ وظني بك لم تدرِ

محمد : ذهبتُ إلى زيارة شيـ ـخ آهلِ الكشف والسرّ
(وهنا يبتسم ابتسام السخرية)
عمود الدين في « قَيْدو نَ » شيخ البرَ والبحر
ألم أخبرك إذ يمّمتُ ما يمّمتُ من أمري ؟

همام : **(متنفسا الصعداء)**
بلى إني ذكرتُ الآ نَ ! فاقبل يا أخي عذري
بلاني الله بالحبّ ! فعقلي ذاهل دهري
نهاري كله فِكر ! وليلي مدمع يجري !
ولا ينفعني علمي ولا رأيي ولا فكري
ولا المشهور من فضلي ولا الممتِع من شعري !

محمد : أخي ! لا تنس أن تصبر فالنّجح مع الصّبر
وخلّ اليأس ولتقرأ معي : إن مع العسر

لمــا تــأ لَمُ في جســمي ... ومــا تغتــمُ في صــدري !
ومــا يحملــه ظهــرك ... محمــول علــى ظهــري !
ألا تخــبرني مــاذا ... جــرى طِيلــة ذا الشــهر ؟

همام : جــرى .. مـاذا جــرى ؟ لا ... شيء غــير الضيــم والقهــر !
« وليُّ الله » ذو الجُبــو ... ة والأرديــة الخُضــر !
وذو المسواك في العِمَّة قــ ... ــد أربــى علــى الشــبر !
وربُّ الســبْحة الغــار ... قُ في التســبيح والذكــر !
بهــا يُذكــرُ في النــاس ... ولا يذكــرُ في الســرّ
ومــن يمشــي بعُكــازَين ... مــن أتباعــه الكُــثر !
يطــاطي رأســه لــلأر ... ض كالبـاحث عــن سـرّ !
تدنّــى مـن (شـهاب) سـا ... عيًــا بــالختل والمكــر
أتــاه خاطبًــا (حُســنًا) ... لراشــي دينــه (بكــر)
و لم يــألُ اجتهــادًا عنــ ... ــده في الغـض مـن قـدري
رمــاني بصنــوف الزيــغ ... والبدعــة والكفــر
ولا تجهــل طــرقَ القــو ... م في الحيلــة والخــتر !

محمد : خفف عليك ! فإن أمرك هـين ... والرأي يبصـره ذوو الأحـلام
أفقِدْ عـدوَّك روحـه بسـلاحه ... وافلل شبا الصمصام بالصمصام

همام **(في شيء من العتب والموجدة)**
أتريدنا نرشو الخبيث كما رشا ... بكرًا ؟ وأيـن مقامه ومقامي ؟
إن لم نكف عن الآثـام نفوسنا ... فعــلام ننقــم ضلّةَ الأقــوام

محمد : لا يُخْطِ ظنك ما أردتِ ، فلم أرِدْ
إنّا نلوذ بسُبَّة وملام
إنّا لنربأ أن نقارف خلة تزري بمبدئنا القويم السامي !
لكن أردت سقوط هذا المرتشي
بطريقة تكسوه ثوبَ الذام
ونرى مخازيه الأنام ليقلِعوا عن هذه الأوثان والأصنام !
من كل قاسي القلب ينصب دينه لقضاء لذّات وجمع حطام
سأطِيل محنته ، وأبطل سحره قسرًا وألصِقُ أنفه برغام
وسيُبْصِرنَّ ذوو العقيدة فيه في
بردَيْه أيَّ مدجّل أثّام !

همام : (وهو يبتسم ابتسامة الإعجاب والرضى)
بوركت يا خير الصحاب ! وبوركتْ
روح الشجاعة فيك والإقدام
لِتَنَم جفوني ما سَهِرْتَ فإن أنم
وسهرتَ أنت فلستُ في النوام
محمد هاتِ عن قَيْدونَ ماذا كان من أمر ؟
وما شاهدتَ في الموسم من عُرف ومن نُكْر ؟
وهل وفّقْتَ في الإنكار والتذكير والزجر ؟

محمد : تَوافَى الناس أفواجًا إلى قيدونَ كالذّرّ
فمن ساعية تمشي ومن راكبةِ الحُمر
هناك الساحة الكبرى تحاكي ساحة الحشر
بها ما شئتَ من لهو ومن لغو ومن هَذْرِ

وقــد غُصَّــتْ بأشــتات ـــن الآســاد والعُفــر !
تبــارت ثــمَّ في الحِلْــــيــة والأبــراد والخُمــر
وقــد يقتلـن بــالمِعصم أو بــالنظر الســحري !!
مــن الظُّهــر إلى العصــر إلى مُنْبَلَــج الفجــر !
هنــاك الخسـر في الديــن وحسـب النـاس من خسـر
ولا يربَـح في تلــك الـــزيارات ســوى النَّجْــر
وأمــا ســادن القبــة فهــو الرابــح المــثري !
تُســاق لــداره الأكيــاس مــن حَــبٍّ ومِــن تمــر
و(للصنــدوق) مــا يــاع مــن ورْقٍ ومــن تــبر !

* * *

ولمــا حضــر الوقــت تداعَــوْا كضحــى النَّفــر
وأمُّــوا نحــو قــبر الشيــخ بــالطبل وبــالزَّمر
يصيحــــون : وليَّ الله جئنــاك إلى القَــبر !
أتينــاك لكـــي تحمِــلَ عنَّــا ثِقــلَ الــوزْرِ
وكـــي تُسْبِلَ يــا قطــبُ علينــا ضــافيَ السِتــر
وفي الأنفــس حاجــاتٌ بهــا يــا سيِّدى تــدري !
أتينــاك لكــي تُقضَــى ونحظَــى منــك بالسَّــتر

* * *

ولمــا وصلــوا القبــةَ داروا دَوْرة الحُمــــر
وأهــوَتْ راحُ ذاك الجمــع في التابــوت بالنقــر

فــلا تســـمع إلا مـــا .... يصيـــب الســـمع بـــالوقر
هنـــاك النـــاسُ غـــيرُ النـــــاس في الإخبـاث والذِكـر !
فهـــذا خـــاضع شـــاكٍ وهـــذا دمعـــه يجـــري
وهـــذا ينشـــج النشـــجةَ تســتعصي علـى الصـدْر !
وهـــذا يُرعَـــدُ الرَّعـــدة في أعضائـــه تســـري !
وهـــذا ينـــذر النّـــذرَ وهـــذا جـــاء بـــالنذرِ
وهـــذا صـــائح : يـــا سيِّـــدي عطفًـا علـى فقـري
علـى عجـزي وإهمـالي علـى ضعفـي علـى ضـري
وقـــد جُلِّلـــتِ القُبَّـــة بالزينـــة والسِـــتر
وبَيْضـــاتٍ مـــن البلّـــو ر عُلِّقـــنَ علـى الجُـدْر !
فمـــن حُمـــر إلى صُفـــر إلى زُرق إلى خُضـــر
ومصبـــاح كبـــير الضـــوء مثـــل الكوكـــب الـــدرّي
وللتـــابوت معنـــىً مِـــنْ جـــلال العِتـــق والقـــدر[1]
قـــد اسـوَدَّ مـــن التقبيـــل في مختلـــف العُصْـــرِ !
عليـــه ضبَـــبُ الفِضّـــة في أســـودَ كالحِـــبر
فتبـــدو كثغـــور الزِّنْـــج إذ تضحـك مـن أمـر !
فثَـــمَّ الضـــم والتقبيـــل بـــالثغر وبـــالنحر
تَلاقـــى فيـــه دَمْعـــا الشـــاب والجاريـــة البكـــر !

* * *

(١) العتق : القدم .

ولمـــا ســـكن الجمـــعُ سـكونَ المـــوج في البحـــر
تـــراءى النـــاس شـــيخًا ذا شقاشـــقَ فيهـــم هُـــدْرِ
ينـادي : أيهـا النـاس اهْـــ ـــنأوا بـــالفوز والنصـــر
بهـــذي النعمـــة العظمـــى بنيـــل الفضـــل والفخـــر
قصـــدتم بـــاب ذى عطـــفٍ وذي جـــود وذي بـــرّ
وإنّ الشـــيخَ لا يـــتْرُكُ مـــن زار بـــلا أجـــر !
عليكـــم بخلـــوص القصـــ ـــد في الســـر وفي الجهـــر
وبالتســـليم للأقطـــا ب والخِدمـــة والصَّـــبر
وإيـــاكم وســـوءَ الظـــ ـــن بالصوفيّـــة الغـــرِّ
فـأهلُ اللّـــه هـــم . جـــازُوا منـــاطَ النهـــي والأمـــر !
ملـــوكٌ لهـــم التصريـــ ـــف في البـــر وفي البحـــر

* * *

سمعنـــا أنْ في (حـــدرى) تباشـــيرَ مـــن الكُفـــر ![1]
تصـــديَّ ناشـــئ غِـــر بـــلاه اللّـــه مـــن غـــرِّ !
يُربّـــى الشَـــعْر كالفُسَّـــا ق إذ يُعْنَـــوْنَ بالشَّـــعر
تلقـــى مـــن فنـــون العِلـــ ـــم مـــا زاد علـــى القَـــدْر
فـــــأغواه وأرداه وجـــاء النفـــع بـــالضّر
ومـــن شِقْوتـــه استحلـــى حميـــمَ الأدب المـــزري
جـــريء القلـــب لا يعبـــ ـــأ بالتهديـــد والزجـــر

(١) تطلق حدرى على ما سفل من حضرموت كشبام وسيوون وتريم . وعلوي على ما علا منها كدوعن وعمد ووادي العين .

يبث السم في الجاهـ ـل والعلاّمة الحِبْر
يسيء الظنَّ بالأقطا ب أهل المدَد السّرّي !
له أتباعُ سوءٍ كلّـ ـهم يدعو إلى الشّرِّ

* * *

هنا قمت وقد ضاق بي الواسع من صدري
وما باليت بالغوغا ء في عسكرها المجر
وقلت اسكت عجوز السو ء يا ذاعية النكر !
عدو الله والإصلا ح ! هل تهذي ولا تدري ؟
أتدعو الناس للنكر وتهجو داعيَ الخير
فصاح الشيخ : غولوه فذا من شيعة الغِرّ
فلولا أن تسلّلت من الجمهور بالفرّ
لكانوا أعدموني مهـ ـجتي بالضرب والدَّفر(١)

همام : **(يضحك ويقوم إلى محمد ويضرب على كتفيه)**

حماك الله من سوء وقاك الله من شَرٍّ
لقد قمتَ مقاماً لا يُوازي عُظْمَه شكري
ولا بد لذي الإصلا ح من عزم ومن صبرِ

* * *

(١) الدفر : الدفع في الصدر .

المشهـــد الثانـــي

« في دار (حسن) في الطابق الثاني . غرفة كبيرة مفروشة بمختلف السجاجيد الثمينة ، مكسوة جوانبها التي تلي الجدار بالمفارش الجميلة عليها الوسائد والمياثر الناعمة .

علويـة : **(داخلة الغرفة)**

أيها الربـــع ســلامٌ عليكــم !

خديجة : **(ناهضة لاستقبالها)**

وعليكـم ألـفُ ألـــفِ ســلامِ !

مرحبًا أهـلاً بشـخص كريـــم   مرحبًـــا بابنـــةِ قـــوم كـــرام

(تتصافحان فتجلسان)

علويـة : يا صبـــاح الخـــير !

خديجة : هــــذا صبـــاحٌ   بـــكِ طَلْـــقٌ ثغـــرُه في ابتســـام

علويـة : كيف حـال الربـــع ؟

خديجة : في خـــير عيـــش   نسـأل الرحمـن حُسْـــنَ الـــدوام

علويـة : أين حُسنٌ ؟ إن شوقي لحســـن   مِثل ما اشتاقَ إلى الماء ظـامي !

خديجة : هـــــي في غرفتهـــــا

علويـة : إئذنــــــــي   أن أراهــــــا ..

خديجة : هي ذات احتشــــام

تستحـــي مِن زائرينـــا

(تقبل الخادم بعدة الشاي)

علوية : ومـــاذا ؟

خديجة : قصدُنا الأنسُ وطيبُ النّدام

علوية : قَسمًا أشْرَبُ إلاّ إذا ما نشرتْ حُسنٌ بساطَ المدام

خديجة : **(مبتسمة)**

أتُجيدين احتيالاً كهذا ؟

علوية : إنما أمْلَى احتيالي هيامي

(تقوم خديجة ثم تقبل وتقبل وراء ها حسن تمشي على استحياء)

علوية : **(قائمة)**

مرحبًا بالبان يهتزُّ لينًا ! مرحبًا بالبدر بدر التمام !

(تدنو فتقبل حسنا على خدها فتقبلها حسن على رأسها وتجلس إلى عدة الشاي)

يوْه ! ما أجملها من فتاةٍ يوْه ! ما أصلَحها لهُمام !

صلواتُ الله تغمر طه وحماها الله من عين رام

(يخفق قلب حسن ويتصاعد الدم إلى وجنتيها فيتوردان وتطرق حياء وتتشاغل بإصلاح الشاي)

خديجة : **(في تجاهل واستغراب)**

مَن همام ؟

علوية : تسألينـي عنه ؟ ليس يخفى البدرُ بين الأنام !

ذلك المُصْلِح زَيّنُ شباب القُطر ذو الهمةِ والإعتزام

ذلك الحالي بكل جميل ذلك العاطل من كل ذام

ذلك المشهور فِي كل قُطر بمزاياه الكِثارِ العِظام

والذي سارت بحُسنِ قوافيـ ـه إلى مصر وأقصى الشام

(تلاحظ ارتياب خديجة فيما إذا كانت هي رسولاً من همام وسفيرًا له)

لا تظنيني رسولَ هُمام أنا لا أعرف شخص همام

إنما آسفُ أنَّ كريمًا مِثلَه يُمنى بقوم لئام

هو يسقيهم كئوسَ حياةٍ وهمُ يسقونه كأس سام[1]

خديجة : ما تقولين ؟ أليس همام حاد عن نور الهدى للظلام ؟

ودعا الناس إلى أن يقولوا فيه ما قد زوَّروا من كلام

علوية : ما استطاعوا أن يَزُنُّوا إلا بالذي يُعليه أسمى مقام

خديجة : إن قلبي ليَودُّ همامًا ورضى بنتي أقصى مرامي !

(تلاحظ علوية من كلام خديجة أنها مقتنعة بحب حُسن لهمام فتقاطع حديثها وتلتفت إلى حسن قائلة) :

أتحبين همامًا :

حسن : **(في تلعثم وخجل)**

ومَن لا يعـ .. ـشق الحُرَّ الحسيب العصامي

فَرَع الناسَ بعلم وخُلق وجهادٍ في الهدى واعتزام !

خديجة **(عائدة لتتمة حديثها)**

غير أني لا أطيق كلام النـ ـاس في زوج ابنتي بالملام

فلزوج البنت عندي محلٌّ في السويداء من القلب نام

خبّريني كيف أدفع عنه حين يُرمى بالفِرَى وأحامي

ليته خلّى زمام الورى فيـ ـهم ، فما كان بربِّ الزّمام

فيم يهتمُّ بأمر سواه وهو لمّا يَعْدُ سنَّ الغلام ؟

---

(١) السام : الموت

لـو تملـى بليـالي صبـاهُ فمضـت في غبطـة وسـلام !
لو تخلى عن شـؤون البرايـا وتولَّـى شـأنَه باهتمـام !
وتعامـى عنهُـمُ !

علوية : هـو يخشـى غضـب اللّـه لهـذا التّعـامى
فالذي يكتـم علـمَ الهـدى يُلْـجَمُ مـن نـار لظـىً بلجـام
إنمـا ضـرّ البرايـا تعـامى هـؤلاء العلمـاء الضخـام
يبصـرون النـورَ وهـو مضـيء فيلـوذون بسـتر الظـلام !
ويـرون النـاس في ليـل جهـل يتدجّـى أفقـه بالقتـام
يـتراءمون علـى كـل قـبرٍ ومصـاب الديـن في ذا الـترامي
ويـرون المنكـرات عظامًـا فـتراهم عندهـا كالعِظـام
ويقولـون : لنـا بـالألى قـد غـبروا مـن قبـلِ حسـن ائتمـام
أنـرى نعـزو إليهـم ضـلالاً وهـم أمثلـةُ الاعتصـام ؟
مثـل هـذا عذرهـم وهـو عـذر سـوف لا يقبـل يـوم القيـام !

* * *

فخليـق بفتـى كهمـام أن نـرى غيرتـه في اضطـرام
إذ يـرى موطنـه في انحطـاط ويـرى أمتـه في انقسـام
دب فيهـا داءُ جهـل وخلـفٍ وعـداء قـاتلٍ وخِصـام
فانـبرى ينعشـهم مـن خمـول ومضـى يوقظهـم مـن منـام !

خديجة : فهبيني قد رضيت ، فمن لي بشهابٍ وهـو صعب الزمـام ؟
وهـو لا ينفـي ويثبت أمـرًا بسـوى رأي (الوليّ) الإمام !

جاءه من قبل عشرين يومًا فنهاه عن قبول همام
ورجا تزويج حُسن (لبكّرٍ) فبه اليمن وحسن الوئام
قال : إن المصطفى يتأذى من همام ، قلبه منه دام
وأولو البرزخ سوف يغيرو ن عليه عاجلاً بانتقام

علوية : (في غضب)

ذلك الدجّال لا ريب فيه أوليُّ الله عبد الحطام ؟؟
قد رشاه بالريالات بكرٌ والرُّشى للقطب غير حرام
أفؤاد المصطفى غير راض عن غيور عن هداه يحامي ؟!
وأولو البرزخ كيف يغيرو ن على حيٍّ وهم في الرجام ؟؟
معشرٌ ماتوا وصاروا إلى النيـ ـران ، أو صاروا لدار المُقام
تُرَّهاتٌ جعلوها من الديـ ـن ، تعالى ديننا المتسامي !

* * *

المشهد الثالث

(علوية تزور زهراء في بيتها)

علوية : صديقتيَ ! إنني لمشتاقةٌ إليكِ

زهراء : واشوقي للقياك !

(تتعانقان بلهف)

أهلاً بمأتاك ، وشكرًا لذكـ ـراك فقد جرّتك ذكراك

علوية : عندىَ بشرى لكم

زهراء : بشّرى علَّ المنى في طيٍّ بشراك

علوية : أيـــن همـــام ؟

زهراء : أهي بشـــرى له ؟ هاتـــي أطـــال الله محيـاك !

فإنـــه ثـــمَّ علـــى حالـــةٍ من الأسى يبكـي لها الباكي !

علوية : يبكـي لها الباكي ؟ ألا ويحـه ويح لـذاك الأسـد الشـاكي !

زهراء : هـاتي أبيني : ما الـذى جئتنـا بـــه ؟ رعـــاك الله مـــولاك

لعـلَّ أن تفثـأ عنـــه الأســى يمنـاكِ ، مـــا أبـرك يمنـاكِ !

علوية : خديجـة لَيَّنـــت مـــن قلبهـــا على همـــام

زهراء : هـــل جـــرى ذاك ؟

كيـف وأيـــن ومتـــى ؟

علوية : زُرْتُهـــــــا أمـس وهـاكِ ما جـرى هـاكِ

« تقص عليها حديث أمس كلـه مما جرى بينها وبين خديجة وحسن .

تستأذن زهراء لتبشر هماما . تنطلق إلى غرفته وتعود بعد حين إلى علوية » .

زهراء : بشـــرته فـــانهملت عينـــه مـــن فـرح مـا كـان لـــولاك

وقـام مـــن مضجعـه ناهضًـا يشـكر حـقَّ الشـكر مسـعاك

علوية : لم آت مـا أُشـكر مـن أجلـه !

زهراء : بمثـــل ذا اللطـــف عرفنـــاكِ

إن همامًـــا قـــانع في الهـــوى بكذبـــة مـــن فـــم أفـــاك !

ويـــأخذ اللفظـــة فـــألاّ لـــه مـــن قصـةٍ يوردهـا حـــاك !

وقد يـــرى الحليـــم فيعِنـــدُه نور رجـاء وســـط أحـــلاك

فكيف لا يبكي سرورًا وقد   جاءته بشرى مثل بشراك ؟
أما شهابٌ فله خِلّه   محمد ذو الخلق الزاكي
لازلتما عون أخي دائما   وا لله يرعاه ويرعاك !

* * *

المشهد الرابع

« سالم في بيت السيد (ولى الله) لتحقيق المهمة التي كلفه محمد إياها . يدخل على ولي اللّه في غرفة فخمة مزدانة بكل ما يستطاع الحصول عليه من الفرش الثمينة والمتاع النفيس . يجده مستندًا إلى جمهرة من الوسائد مادًا رجليه لرجل عنده يكبسهما ».

سالم : سيدي يا صاحب السر العظيم   يا ولي ا لله يا غوث العديم
متّع اللّه بمحياك الورى   إنما وجهك مصباحُ العتيم

الولي : مرحبًا بالخادم البرِّ الذي   خصه الرحمن بالقلب السليم
حَسِّن الظن بأهل السرِّ يا   خادمي تحظ بجنات النعيم
آه ـ لو يعرفني هذا الورى   لأتوني من قصيَّات التخوم
أنا جيلانيٌّ هذا العصر ، قد   وطئت رجلاي أعناق النجوم
خضت بحرًا وقف الخلق على   ساحليه في ذهول ووجوم ـ
من رآني أو رأى من راءني   فهو محظور على نار الجحيم
أهل هذا القطر ما دمت به   في رخاءٍ وهناءٍ مستديم
يولد الطفل على عيني ، كما   يرحل الراحل أو يغني المقيم
أسعد الناس بنا أحسنهم   نيةً فينا فذاك المستقيم

وأشدُّ الناس خسرًا من بنا ساء ظنًا فهو شيطان رجيم !
ذاك في نار لظًى مهما يكنْ كامل التقوى يصلي ويصوم !
ولقد قام أخيرًا ناشئٌ صرفته عن رضى الله العلوم
رام إسقاط مقام الأوليا جاهدًا ينفث في الناس السموم
زاعمًا أنّ الورى في ضلةٍ وهو يمشي وحده النهج القويم
هكذا من كان لا شيخ له من أولى الباطن في الغي يهيم!!

سالم : سيدي علَّ همامًا قصدكم ذلك المفتون بالرأي السقيم

الولي : نحن لم نعن سواه

سالم : أنا لي في علاج الناس أسلوب حكيم
ربما استطعتم به إن شئتم أن تردوه عن الغيّ الذميم

الولي : أنت لا تستطيع أن ترجعه للهدى أو تحييَ العظم الرميم
إنَّ هذا لمحال !

سالم : إنّني بالذي يُغري همامًا لعليم !
إنّني أعرف مثوى ضعفه فسأرميه بنبلي في الصميم
إنّه يهوى فتاةً لشبها بِ هوى قيس لليلي في القديم
هو في غير الهوى ضرغامة وهو في الحب ضعيفٌ كالظليم
وشهابٌ خاتمٌ في كفّكم ليس يعصى لكم الأمر الكريم
لو سعيتم لهمامٍ عنده فضمنًا لكم أن يستقيم !

الولي : (في غضب وهياج).
ليت شعري كيف أقضي حاجة لفتى نغص من عيشي النعيم ؟
كبه الله على منخره ! وسقاه الله في النار الحميم !
كم عناني أمره من ماردٍ ! ولكم عذّب قلبي بالهموم !

والــذي نفســيَ فــى قبضتــه وبه السَّبْع السماوات تقـوم !
نحــن لــولا أنَّ في غضبتنـــا حِطةَ من رتبة (القطب) الحليـم
لضربْنـــا ضربـــةً تنسِـــفه وتركنـــاهُ كمـــذْروّ الهشـــيم
وأصـــابتْ بيتـــه نائبـــةٌ تذهل المرضع عن رعي الفطيـم

سالم : إنمـا نقضـي علـى أنفاسـه إن جعلنـاه إليكـم يسـتنيم
إنَّ هـذا هـوَ الـرأي الـذي يحفظ الناس من الداء الوخيم

الولي : أتـراه يرعـوي عـن غيّـهِ إن أعنّاه علـى نيـل المـروم ؟

سالم : ذاك مـا لا شـكَّ فيـه ، وأنـا لكـم بـالكفّ عـن ذاك زعيـم

الولي : خادمي ! رأيك هـذا صائب فهمـام خطـرٌ فينـا عظيـم !
غير أنَّ الأمـر قـد فـات ولم يبق في الرأي مجـال للحكيـم
قـد خطبناهـا (لبكـر) قبلـه وحبانـا منـه بالمـال الجمـوم
فرميناه (بصندوق القـرى) لغريـب أو فقـير أو يتيـم !

(يسكت قليلاً ثم يقول)

كـم همـامٌ دافـعٌ مـن مالـه ؟

سالم : ضعف بكر أيها المولي الكريـم

الولي : ذا إذًا ألـف ريـال ! هاتـه قم ! وثق أنّا سنقضي مـا يـروم
إن بكـرًا ذو غنـًى ، لكنـه يابس الكفّ شحيحٌ ولئيـم !
سـيرى عاقبـة البُخـل غـدًا عندما يُخْطِئه الوجـه الوسيم !

(يستأذن سالم بالانصراف فينصرف . يعود إلى بيت ولي الله من الغد)

سالم : قـد فعلنـا كـلَّ شـيءٍ وظفِرْنـا بهمـام
وارتضـى مـا قـد شـرطنا ه عليـه بـالتزام
وهـو مسـرورٌ بهـذا شـاكر سـعي الإمـام
تـاركٌ دعوتـه النُّكْـراء مـن أجْـل الغـرام

الولي آخـذ أن ليـس يؤذيـكم بفعـلٍ أو كـلام

سالم : أينَ ما أعطاك ؟ هـل أقـبلتَ بالمـال الـلزام ؟!

الولي : هـاك تحويـلاً إلى « جـا وَا » بـألف بالتّمـام
(**يمد يده للتسلم**)
هاتـه ليـس لِجَيْـبي بـل لصنـدوق المقـام !!

* * *

المشهـــد الخامـــس

بين ولي الله وشهاب :

الولي : جـاءَني الليلـة آتٍ في المنـام صائحا يهتـف حسـنُ لهمـام
إن بكـرًا فسـدت نيتـه فـى توليهـا بحـبٍّ واحـترام

شهاب : إنـه يـا سـيدي مبتـدع

الولي : إنـه قـد تـاب عـن هـذا الإثـام

شهاب : **(في استغراب)**
ومتـى تـاب ؟

الولي : أتـاني نادمًـا أمس مما بثَّ في النـاس السمام
إذ دعونـا الله أن يهديـه سمـح الله بـإدراك المـرام

شهاب : **(في خضوع وتسليم)**
ليكـن مـا شئتم يـا سـيدي نحن نرضي رأي مولانـا الإمـام

* * *

المشهـــد الســادس

بين زهراء وخديجة :

زهراء : صديقـــتي ! إنَّ قلـــبي ممـــا فعلتـــم لموجـــعْ
أشـــتاقكم غـــير أنـــي مـــن وصلكـــم أتمنَّـــعْ
فـــإنَّ جرحـــي منكـــم فيـــه الأســا[1] ليـس ينفـعْ
ولـــو أطعـــت صوابـــيَ مـــا جئتكـــم أتســـكع

خديجة : زهـــراء : لا بـــأس بالعتـــــب فهـــو للـــودّ أجمَـــع
مـــا ســاءَ قلبـــك مـــني ؟ قـــولي لعلـــي أرجـــع !
فربمـــا خـــبٌ واشٍ فينـا إلى الدحـس يهـرع[2]
وذا زمـــانٌ لئيـــمٌ فيـــه المـــودات تقطـــع

زهراء : إن همامًـــا شـــقيقي لـــه بقلـــبي موضـــع
فنيلكـــم منـــه نيـــلٌ مـــني بغـــير تـــورُّع

خديجة : زهـــراء ! أسـرفت في تهْـــمَتِي ، فبَعْـضَ التسـرُّع
فمـــا ذكـــرت همامًـــا إلا بمـــا عنـــه يســـمع
مـــن الخـــروج علـــى النـــاس في تقـــاليد تتبـــع
قصصـــت ذاك لعصمـــاءَ مـــن بنـــات المشـــفع
لأنهـــا لهمـــام رأيتهـــا تتشـــفع
قامـــت تدافـــع عنـــه بحجـــج ليـس تدفـــع

---

(١) الأسا : مصدر أساه يأسوه داواه أي لا تنفع المداواة فيه .
(٢) الدحس : إفساد المودة بين الصديقين .

وإن قلبي ليهوى جبيب (حسن) المشيع

زهراء إذن فماذا التأبي منكم وهذا التمنع ؟

إلا رحمتم فتًى من هجرانكم يتوجع

تكاد أحشاؤه من نشيجه تتقطع

خديجة : إن الإبا من شهاب وما لما شاء مدفع

لأن رأي شهاب للعارف القطب يرجع

زهراء : (في غضب)

القطبُ لِصٌّ عن الإرتشاء لا يتورّع

يشرى ويبتاع « حُسنًا » خلف المطامع يهبع

كأنها سلعة في السُّوق تحطّ وترفع

ألمْ يبعها « لبكرِ » ذاك البغيض المُدفع ؟

كأن سود الدياجي بوجهه تتلفع

ثم ارتجي من همام همام ألفًا لكي يتشفع

وبعها باعها في غدٍ لزيد ومرتع

والناس ظنّوا أباكم تسلم المال أجمع

إن الوليّ عن السوءِ عندهم يترفع !

أبوكم ليس يدري مما عن الناس يسمع

ولو درى لتبرًّا من الوليّ المرقّع

خديجة : (وهي تتألم) :

أقد تُحَدّثَ عنا بذاك في كل مجمع

يا ويلتاه ! أتؤتي من حيث لا نتوقع ؟

إنا أناسٌ على عزّ نا نحامي ونلفع

أعراضنــا هـي أغلــى مــا في الحيــاة وأمنــع
لـو كـان يـدري شـهابٌ لمــا تهنّــا بمضجــع
وسوف يـدري عسـى عـن هــذا المدجــل يُقلــع

(تتنهد وتستعبر)

يـا ليـت (سـعدًا) لدينــا في أمرنـــا اليــوم يقطــع
لمــا ألانـــا اجتهـــادًا في أخــذ مــا هـــو أنفــع
لكنـــه غـــاب عنّـــا تســـع ســـنين وأربـــع
في أرض (جـــاوا) الـــتي تـــأكل الرِّجـــال وتبلـــع
راحَ ليجمــــع مـــالاً لنـــا بـــه نتمتـــع
يـا بئـس مـا جمعـت كفّـــه ومـا هـو يجمــع !!
مـــاذا يفيـــد الغـــني مـــن يخســـر أهـــلاً ومربـــع
تزوجـت « مزفـةٌ » عُـــرْســـها بـــه لم يُمَتَّـــع
تُســأل : أيـــن أبوهـــا ؟ فـــلا تُجيـــب ، وتدمـــع
وهـــذه أختهـــا أوشـــكت تـــزف وتخلـــع
فواشـــقاءَ حيـــاةٍ فيهـــا الفـــؤاد مـــوزَّع

* * *

المشهد السابع

(بين سالم وشهاب) :

سالم : مـــالي أراك كئيبًـــا ؟ مُنْقَمًّـــا يـــا شـــهابُ ؟
فمـــا أصـــابكَ ؟ قـــل لي

شهاب : إنـــي بخطـــبٍ مُصـــابُ !
ذاك الـــذي كـــان يدعـــي بذكْـــره ويُحـــابُ
ومَـــنْ بغرتـــه كـــان يُسْـــتَدَرُّ السَّـــحاب !
مـــن كنـــت أبصِـــرُ أخطـــا ءَه وهُـــنَّ صـــوابُ
قـــام يُلـــوِّثُ عرضـــي بمـــا بـــه النّـــاس عـــابْوا
فقيـــل إنـــي طَمُـــوع بالمـــال وهـــو كِـــذَاب
لـــولا المُدَجِّـــلُ هـــذا لمـــا علانـــي عـــابُ
لله درُّ هُمـــــــام فهـــو الحكيـــم العجـــاب
إذ قـــال : أمثـــال هـــذا في المتقـــين ذِئـــابُ !!
وإنمـــا ســـترتهم عـــن العيـــون الثيـــاب !
فمـــا نـــراه شـــرابا مـــا هـــو إلا ســـراب

سالم : أنـــا الـــذي ســـلّمته مـــالَ هُمـــامِ بيـــدي
فـــلا تكـــن مـــن أمـــره في شـــكّ أو تـــردُّد
إن هُمامًـــا لَلعصـــا مـــيُّ الكريـــم المحتـــد
مهمـــا يقـــل فإنـــه زيـــنُ شـــباب البلـــد
رآك لا تصغـــــــي إلى غـــير كـــلام (الســـيد)

ولم يجـــــــد إلا وليّ الله خـــــيرَ مســـــعد
فلـــم يـــدع وأي صديـــــــقه الفتـــى « محمـــد »
ولم يكـــن ذاك الـــذي يهـــدي الـــورى بمهتـــد
مَـــدّ إلى الدرهـــم جيـــــدَ ذِلّـــةٍ في صَيـــدٍ !!
وكـــان مـــا كـــان فـــلا تغضـــب ولا تفنّـــد
أنـــت عليـــك الغُـــرم والغـــم لـــرب المـــدد !
هـــذا جـــزا تـــارك رأيـــه لـــرأي أحـــد !!

* * *

المشهـــد الثامـــن

(بين شهاب وبكر) :

بكر : يا عـــم مـــا الـــذي جـــرى ؟ ردَدتَ مـــنيَ اليـــــدا
ألســـت قـــد قبلتـــني فمـــا عـــدا ممـــا بـــدا ؟

شهاب : (يتجلد ويخفي غضبه)
حظـــك يـــا بكـــر الـــذي حـــلأ عنـــك المـــوردا
فـــاطلب ســـواها تلـــقهنَّ كالرمـــال عـــددا

بكر : (في وقاحة)
وأيـــن أمـــوال الـــتي أنفقـــت فيهـــا بـــددا ؟

شهاب : لمـــن دفعتهـــا ؟!

بكر : لمـــوْ لانـــا الـــوليّ المقتـــدى !

شهاب : (في سخرية)

إذن فخذها منه لا تطلب سواه أحدا

بكر : (معترضًا)ـ

أعطيته لأنه كان لكم معتمدا

شهاب : (في غضب)

خسئتَ يا نذلُ فقم وخلِّ عنك اللددا !

أليس فينا حاكمٌ يحكم هذي البلدا ؟

فاشكُ إليه من على مالك ـ إن شئتَ ـ اعتدى !

بكر : (في تضعضع وخجل)

إذن ... فمالي كلُّه

.. أكله .. وازدردا ..

إذن ... فلم يعطكَ من مالِيَ ... شيئًا أبدا .. !

أما اكتفى بما ارتشاه نصفَ ألفٍ عددا ؟

يا ويلتا ! واحسرتا ! واحزَنا ..! واكمدا !

لأرفعنَّ أمرَه إلى الأمير « أمجدا »

أفضحه عند الورى ..!

شهاب : (وقد سرى عنه)

الآن أبصرتَ الهدى !

بكر : (يتنهد)

فليمض مالي لظهور سيئاته فِدَي !!

* * *

المشهــــد التاســـــع

(همام في مجلس الأمير « أمجد » وقد دعاه إليه) :

الأمير : أتــدري يــا همــامُ لأيّ أمــر دعوتــــك لي ؟

همام : لخــير يــا أمــيري ؟

الأمير : ألم تعلــم بمــا اجترمتــه كفــا وليِ الله مــن إثــمٍ كبــير ؟

همام : بلى هــذا حديث قد فشا في حمانــا في الكبـير وفي الصغـير

الأمير : فمــاذا أنت يا سنــدي مشير به في مثــل ذا الأمر الخطـير ؟

همام : أرى أن تَحْبســـوا الجانــي وأنْ لا
تمسُّـــوه بســـــوء أو نكـــير
فمطلق حبسه كاف ـ أراه ـ لردع سـواه من أهـل الشرور

الأمير : ولكـن والـدي يخشـى علينـا ـ إذا عاقبتـه ـ سوءَ المصـير
يُحـاذِر دعـوةً منـهُ علينـا فتُلحِقُنـا بأصحـاب القبـور

همام : أمير ما عهدتـــكَ غير حـــرٍّ طليـــق الفكر متقد الشعـــور
وحسـبك ما قـــرأت عليـــك طـــردًا
لأوهـــامٍ توســـوس في الصُّــــدور
أتعـــرفُ إثمـــهُ وتخـــاف منـــه ؟
أتقبـــل دعــوة العاصي الكفور ؟؟
كـذاك الوهـم تُشـربه نفـوس فتشـهد مـا تُخيَّـل مـن أمـور
وقـل لأبيـك ذا بكـرٌ شـكاه وهتّك مـا عليـه مـن ستور
فلو كان الولي لديـه حــولٌ لكان رمـاه بالسهـم المبير

فإن تحبسه جئت بـه دليـلا | يسجّل عجز أقطاب الغـرور
فليس أذاه مقصـودًا ولكـن | لِيبْطـل سـحرهُ بيـد الأمـير !
الأمير : لقد قررت هـذا الرأي قبـلاً | فبورك في ذكـائك مـن مشـير
وإن الدّجل أبغض كل شيءٍ | على الدُّنيا يضيق به ضمـيري

* * *

المشهـد العاشـر

(يأتي لزيارة محمد فيستقبله محمد في غاية الحفاوة)

شهاب : محمدُ أنـتَ الجـريءُ الفـؤاد | وأنـت صديـق هُمـامَ الـوفي
فلو كـان مـن ربِّـهِ مُرسـلا | لكنـتَ حواريَّـه المقتفـي
وتعلـم مـا كنـت أوذِي هُمـا | مـا به غيرَ هـادٍ ولا منصـف
أتـابعُ في أمـره مُفسـدًا | يبيـع ويبتـاع بـالمصحف !
وإنـي علـى مـا مضـى نـادمٌ | وأنت بإصلاح أمـري حفـي(١)
محمد : ألا مرحبًـا بالسَّـليم الفـؤاد | وبالطّـاهر السـيرة الأشـرف
بعتم حبيْبة خير الرِّجال بمن لا | بصهْر هُمـام الوديـع الصَّفـي
بمـن لا يُقِـرُّ علـى المنكـرات | وليـس يُطـاطئُ للمِعْسَـف(٢)
همـامٌ يُحبّـكَ مهمـا فعلـتَ | بـه عـن ولائـك لا ينتفـي
يـراكَ أبـاهُ فمهمـا قسَا | عليـه لتأديبـهِ يعطِـف

---

(١) عارف وخبير .
(٢) هو الظالم الشديد العسف .

(يبتسم شهاب وتتهلل أسارير وجهه)

شهاب : فلله ما كان أنقى همًا وأشرفَ أخلاقهُ الساميه !
أضارسُه ثم يبقى ودودًا عليَّ طويَّته صافيه ؟

محمد : بقدر نبالةِ أخلاقهِ يحبُّ حبيبتَهُ الغاليه !
تمادي به حبُّها فهو لا يقرُّ القرار له ثانيه !
يبيت يناجي نجوم السماء ويخضع أدمعه العاصيه !
ويجلس في بيتهِ للطّعام إذا ما أجاب له داعيه !
فيُذهلُه الحبُّ عما لديه حتى لتنكفِئُ الآنيه !!
وإني لأخشى عليه - إذا تماديتم - الضربة القاضيه
هنالك تخسر زَيْنَ الشباب ونحرَم أنفاسَه العاليه !
ويسألكَ الله عن مهجةٍ قضت بك مصلحة هاديه

شهاب : **(وهو يبكي)**

كفى يا محمد ! إني أتيت لتكفير أعماليَ الخاطيه
فلو كان ذنبُ هُمامٍ فحسب عليَّ لخفَّ على باليَه
أزَوِّجُه اليوم من حسنِهِ فيغفر زلاّتي الماضيه
ولكنني قد عصيت الإله وعرّضت نفسيَ للهاويه
لقد غرَّني وعد ذاك الوليّ بمحوِ خطيئاتيَ الخاليه
وبشَّرني أنه قد رأى قصوريَ في الجنة العاليه
فلم أتزوَّدْ لدار البقاء اتّكالاً على الزُّلفِ الواهيه
فأيقنت ذا اليومَ أن ليس ينفعني غير أعماليَ الزاكيه
وأن ليس يمحو خطاياي غير النصوح من التوبة الماحيه
نصائح كان ينادي بها همامٌ فنرمي بها ناحيه
فها قد بدت لجميع الأنام مخازي مُدجلنا الغاويه

محمد : سلامٌ عليك دموعك هـ ـذي لتطهير أدرانها كافيه
فلا تبتئسْ ، إن ربًا هداكَ ليبغي بكَ الخيرَ في الثانيه

« يريد شهاب النهوض فيمسكه محمد قائلا »

وأمرُ هُمام ؟؟

شهاب : وماذا يريد همـ ـامٌ وليس لحُسْنٍ سواه
هي اليومَ بينَ يديه وما مُناي من الدّهر إلا رضاهْ
ولكن. حديث (الرُّشى[1]) المسـ ـتفيض شوّش أفكار أمِّ الفتاه
فما زال يلهَج أهل الحِمى بأن (الوليَّ) همامٌ رشاه
وأن شهابًا تسلّم أموالَ بكرٍ و لم يُعطه مُبتغاه
فقالت نؤخّر تزويجَ حُسـ ـنٍ لِنقطع ألسن هذى الوشاه
فما كان لِلمال إيثارُنا ولكن لعلمٍ وفضل وجاه
فأوص صديقك أن يطمئنّ إلى الصبر حينًا ليلقي مناه

محمد : ألا ليت شعري ماذا يقو ل همامٌ إذا رُعته بالخبر ؟!
أقدّم باقة زهر له وأطوى له الصّلّ بين الزهر
فلو رُحت تنصَحُها بالعدو ل عن رأيها ! علها تأتمر !
علامَ تبالي كلام الطّغام وما ينطقونَ بغير الهذَر ؟
وأعيان (سيوونَ) تدري الـ ـحقيقَ وبعد غدٍ يظهر المستتر
سَيُحْبس هذا الوليُّ الشقي وتفضح سوءاته والعرر

---

(١) جمع رشوة .

شهاب : لعلـكَ تجهـل أنّ النسـاءَ إذا قلـن شـيئًا فهُـن القـدَر
ولا يَرعوين عن الـرأي لـو وضَعْـتَ بأيمانِهـنَ القمـر
فكم قد سعيت وكم قـد نصحت ولكـن كـأنّي نصحت الحجـر

محمد : إذن لـن يطيـق همـام المقـامَ هنـا ،

شهاب : لـيرحْ نفسـه بالسـفر
إلى الشام أو مصر أو للمهاجَـ ـر (جـاوَةَ) أو للبلاد الأخر
وبعـدَ ثلاثـين شـهرًا يعـو د ، وسوفَ تمـرُّ كلمح البصر
هنـالك تبلـغ سِـنَّ الـزّواج (حُسْنٌ) وتنضج نضـج الثمر
وربَّمَـا عـاد (سـعدٌ) إلينـا فـيزهو بـه عُرْسـنا إن حضـر

(ستـار)

الفصـــــل الثالـــث

المشهــــد الأول

« بين همام وزهراء » .

زهراء : **(في جزع)**

أهمــامُ خــبّرني بــودّك لي   مــالي أراك تنضّــد الكتبــا ؟
مـاذا اعـتزمتَ أأنــت تاركنـا   للحادثـات تسـومنا الكربـا ؟

همام : **(في حنو)**

لا يـا أخيَّــة ! أجملـي جزعـا   لا ينـس قلـب المؤمـن الربــا
سـفري لطول إقـامتي سـببٌ   ولـرُبّ بُعـدٍ أعقــب القُربــا

(يتغير وجهه)

إنـي أخــافُ إذا مكثــتُ هنــا   أن لا أطيقَ فــأقضيَ النّحبــا !

(يخالط صوته البكاء)

أيسرُّ قلبـك أن أمـوت أســىً   في الرَّبــع إذ تبكيــنني ندْبــا ؟
أو ما رأيـتِ القـوم قـد قطعـوا   صوتَ الحيـاة وكـان قـد لبيّ !
حفلوا بسمعتهم ـ كما زعموا ـ   لكنّهــم لم يحفِلــوا الصَّبــا
لِيمُــت شـهيدًا مـن يشـاءُ ولا   يتوهمــوا في عِرضهــم ثلْبــا
آه ! أَهــذا كلُّ ما أ تمنــى ؟   ولقد وهبتُ الــروحَ والقلبا !

(يتذكر حسنا ويستحضرها كأنها ماثلة أمامه تسمع ما قاله فيستحي مما تكلم به في أهلها)

يا حسنُ ! معذرةً فأهلك نا لهم الملامُ وما جنَوْا ذنْبا
حاولتُ عَتبهمُ بتَوْعدةٍ لكنني لم أُحسن العتبا
ورضاك همي في الحياة ؛ فإن ترضَيْ رأيتُ عذابها عذبا !
وإذا غضبت غضبت في بصري فأرى الخليقة كلها غضبى !

(ينتبه من ذهوله إلى أنه بحضرة أخته الحنون)

زهراء خليني لأرحلَ عن هذي الديار فأسلوَ الحبّا
فلقد لقيتُ به دواهي له رُعْنَ الجبالَ تركنها تربا
هيهاتَ هيهاتَ السُّلوُّ ! ويا ليت السلوَّ يُباع أو يُجبى !
أفكلما سَفَرَ اللقاء أتى آتٍ فسدَّل دونه الحجبا !
أو كلما ابتسم الربيع لنا جرت الدبور وهبَّت النكبا ؟

زهراء : **(آسفة على أن هيجت أخاها مشفقة عليه)**

عفوًا هُمام فليسَ قصـ ـدي أن أهيجك يا ابن أمي !
لكن شجاني أن تفا رقنا وتركب ظهر يمّ
إنَّ البلاد لسوف تَفْـ ـقد فيك نجمًا أيّ نجم
نجمٌ يفيض هدايةً وسناهُ من خلق وعِلم
تبًّا للدهر دأبه يَرمي أفاضِله فيُصمي
أيَصَدُّ مثلك عن مطا لبه ويُمتَع كل فدْم ؟
أهمام إن كنت اعتزمتَ على الرحيل فخيرَ عزم
إذهب وعُدْ عما قريـ ـب بين عافيةٍ وغُنْم
سيكون ربك حافظًا لك في الفلاة وفي الخضم
ولسوف تدرك ما تؤمِّـ ـلُ ما ظللت إليه ترمي
ثقتي بحسن أن تُعيـ ـدك خففت حزني وهمي

همام : (في حزن وأسف)

لكــنَّ حُســنًا لم تشــأ تنويــر خطــبي المدلهــمّ
كــم قــد كتبــتُ لهــا الرســا ئــل بــين منثــور ونظــم
فتصــدّ عنهــا لا تجيــب كأنهــا لا تعــرف اسمــي !!
وطلبــتُ منديــلاً لهــا ليكــون في الظلمــات نجمــى
ويكــون أنســي في البعــا د يكفُّ مــن حزنــي وغمــي
آوي إليــه إذا نــزا قلــبي بضــم أو بلثــم !
ولقــد أتــاني ردُّهــا لكــن تعــثر فيــه فهمــي
وإليكِــهِ فاتليــه ثــمّ اقضي على حُســن بحكــم

(يناولها رسالته إلى حسن وعلى ظهرها الرد منها)

الرسالــة :

حبيبــة قلبــي علّليــني بتنويــلِ
أَقَــضِّ زمانــي في رجــاء وتأميلِ
بعثــتُ إليكِ الكتب تترى ، فلــم أفز
ببعــضِ جــوابٍ منكِ يا غاية الســول
كأني لم أحمــل هــواكِ ، ولم يكــن
لقــاؤك قصــدي في الحياة ومأمــولي !!
وهــذي النــوى قد أوشكت أن تميل بي
إلى عــالمٍ من رقعــة الأرض مجهــول
أقَضِّي به دهــرًا قضيتــم به علــى
حُشاشــة صــبّ عاثِــر الجدِّ مخذول

فجــــودي بما أمَّلــــتُ منكِ وأجملــي
وداعــًا لمفتــونِ بحُبــكِ متبــول
وإني لراضٍ منكِ يا حُسْــنُ باللّفــا
بقطعـــةِ ثــوب أو بشقّــةِ منديل ،
لعلــي أسْطيـــع ابْترادًا من الجـوى
بضمّــي إيَّاهُ لصــدري وتقبيلـي ؟

همــام

الــــرد

جوابُكَ عنــدي ما تظنُّ ، فلا تـرم
بكُتْبـك إحراجــي فإنك ذو علـم
وإني فتــاةٌ ليس أمــري في يـدي
فإن شئتَ فاطلـب ما تؤمّل من أمــي

حُسن

زهراء : **(تلتفت إلى همام والكتاب لا يزال في يدها)**

همـام أمّـا جـوابُ حُسْـنٍ   فإنــه أبلــغُ الجـواب
دلَّ علـى الحـبِّ والتفـاني   فيـكَ إلى عِفّـةِ الجنـاب
وإنهــا إن تحـبَّ يومــًا   ففي حمى الصَّون والحجاب
إن كتابًـا يــأتيكَ منهــا   رســولُ آمــالِك العِـذاب
ما تبتغــي أنـتَ فـوق هــذا   يأتيك من غـادة كعـاب ؟
لـولا هـوًى صـادقٌ لديهـا   لم تـر منهـا نصـف كتـاب
وســوف آتيــك بالذي رمْـ   ـتَهُ فــلا تبــقَ في اكتئاب

المشهد الثاني

(همام على حماره في طريقه إلى الساحل (المكلا) بعد أن شيعه إخوانه وأصدقاؤه . أمامه دليله البدري عامر يقود جملا له يحمل زادهما)

همام : رويدًا رويدًا حِمَار البعادِ ... فإنك تبعدُ بي عن حبيبي !

و لم يك خطوُكَ فوق الثرى ... ولكنه فوق قلبي الكئيب !

أراك كنعشٍ بجسمي يسيرُ ... ولكن إلى غير قبرٍ قريب !!

فيا بعد (سَيْوون) عني؟ ويا ... دُنُوْكِ (جاوةُ) من ذي الشُّهوب!

عليها السلام سلامُ الودا ... ع، سلامُ البكاء، سلامُ النحيب

سلام على حسن بين العذارى ... سلام على قلبها في القلوب !

سلام على دارها في الديار ... سلام على دربها في الدروب ؟

سلام على أهلها الطيبين ... من كلِّ بَرٍّ كريمٍ نجيب

سلام على وَطنٍ طاهر ... تضوَّع منها بمسكٍ وطيب

سلام سلام على ساعدي الـ ... أشدِّ وصِنْوى المطيع الأديب

سلام على خيرة الأصدقا ... ء محمدٍ الألمعيّ الأريب

سلام على لطف زهراء إذ ... تفرّج همي ، وإذ تعتني بي !

(يخرج المنديل من جيبه فيضمه إليه ويقبله)

أتعلم يا منديـل أنّكَ مُؤنسي وأنّـك عنـدي للكريـم المحبـب
وما ضرّ من ينأى - وأنت بكفه أنيـس نـواه ــ أنـه يتغـرّب

(يمر على آثار مزارع قديمة مندرسة يتمهل في السـير قليـلا يتأمل في تلك الآثار) .

انظر إلى هـذي السهول فقـد كـانت مـزارع مـا لهـا حـد
كـانت جنانـا لا فُجـاءَ بهـا ــ غير الممر لراكب ــ تبـدو[1]
من عدوة الوادي القصيّ إلى الـ أهضـام مــن حَـدْراه تمتـدُّ
عمَر الجُدُودُ بهـا مواطنهـم فغَنُـوا وعيشـهم بهـا رغـد
ما بعد عام الألف ما قدُمَتْ منـه العهـود ومـا بهـا بُعْـدُ
لمـا تجفَّ بها مواطـيءُ أقْـ ـدَام الألى اشتغلوا بهـا بعـد
البُرُّ والسمراءُ ، والـذُرّة الـ ـبيضاءُ والأفـواهُ والرنـدُ !
والنخـل والأعنـاب حافلـةً بقطُوفِهــن كأنهـا شـهد !
والسِّدر يفرش في الفضا بسطا مـن سُنْدسٍ خُضـرا فينسـد
فهنـالك النعمـاء تخطـر مـا بـين الحقـول يزينهـا الـبرد
لله عيشـهم فـلا كَـدرٌ يعتـاق صفوهـم ولا جهـد
دَعْ عهدهـا العاديَّ من قِدَمٍ فلقـد تقـادم ذلـك العهـد
إذ كانت الأنهـارُ جاريـة تحـت الجنـان كأنها الخلد !

(١) الفجاء جميع فجوة . ورد في الرحلة المتوكلية وصف حضرموت على عهده حوالي سنة ١٠٦٠ أنها كانت بساتين ممتدة من حضرموت إلى المسفلة لا فجوة بها خالية من الأشجار والزروع إلا مقدار ما يمر الراكب .

تلـك الحقـائق لا يُصدقها — قوم عيـون قلوبهـم رمـد
تلكم بقاياهـا تـدُلُّ على — ما كـان ــ سَدٌّ دُونه سد !
يحتـاز مـاءَ القطـر يقسمه — بين الأراضـي حُكمها القصـد
فنمت مزارعها فما فَتِئَتْ — فيها الغيوث تروح أو تغـدو
هي سُنَّةُ الباري فما كثر الْـ — ـأشجار فالأمطـار تشتد

* * *

قف سائل الآثار كيف ذوت — تلك الخمائل فهي ذي جُرد
تخبرك إن نطقت : وربَّتما — نطـق الجماد وقوله الرشد
في بطنِ أرضٍ أنت واطئها — همم تصول فليس ترتد
تصبو إلى العمل المفيد ترى — أن السعادة ركنُها الجِدُّ
فتلاهُمُ خَلْفٌ كأنهم — لا ساعدٌ لهم ولا زنـد !
فَسَبِيلُنا ترديدنا أبدًا : — نعم الجدود وبئست الولد !!

* * *

المشهـــد الثالـــث

في منتصف الطريق على مقربة من الريدة (بلاد البدو)
(همام يلتفت ـ وقد كادت الشمس تغرب ـ إلى بدوية عامر)

همام : سر يا أخا البدو وحَثحِث جملك   لا يُظلم اللّيلُ ويشتدَّ الحلك
ونحنُ لمَّا نأت بعدُ منزلك   أبلغكَ الله بخيرِ مأملك
ولا أصابَ الحبُّ يومًا مقتلك

عامر : هُمام يا خير سَراة العُرب   لا تذكر الحبّ لِعانٍ صبٍّ
متى دعا داعي الهوى يُلبّ   إني أحسُّ ضرَمًا في القلب
يدفع في صَدري ويكوي جنبي !!

همام : بالله هل تَعْرف معنى الحب؟   وما به من فرَحٍ وكرب
وهل سَعِدْت مرة بالقرب   أم أنت مثلي مستطار اللبّ
لمّا يَفُزْ من حوضه بشرب

عامر : أنتَ إذن يا صاحبي سعيدُ   وإنّي وحدي أنا المعمود
من بعد ما طابَ ليَ الورود   حَلاني عن حَوْضِها الصُّدود
فليسَ ليَ صَبرٌ ولا مَجلود

همام : أنت السَّعيد وأنا المنكودُ   فالوَصل مهما قلّ فهو عيدُ
تُشفَى به من دائها الكُبود   لكنَّ هجري الأبَدُ الأبيدُ

ليتَ الزَّمـان لي بـه يجـود   وبعـدَه تطويـنى اللُّحـود !!

عامر : يَظهر لي من بعض ما أراكا   أنك تهواها كما تهواكا
يا ليت حظي من وجودي ذاكا   إذن لكنت حامدًا مولاكا
وما شكوت مِثلَ مُشتكاكا

همام : عامر مما زادَني ارتباكا   أنّا اشتركنا في الهوى اشتراكا
أشكو نواها وهي تشكو ذاكا   فيَستهلُّ مَدمعي اشتباكا
لما بَلاها وبَلا أخاكا

عامر : (في حزن)
لا تحسَبنَّ هَجرها هجرَ شرَف   لفرط غنج أو دلال أو ظَرف
لكنه أشنَع ذنب يُقترف   تَتْركني زوجًا إلى غيري تزف
وصكُّ عقدِها معي لما يجفْ

همام : ربّاه في كلِ مكانٍ ذو شغف   يُسلمه الحبُّ إلى مهوى التَّلف
رحماك بالعشاق من جور الهيف   ما غار من غور و لم يَعل شرف
إلا وفيه مغرَم القلب دنِفْ

* * *

المشهـــد الرابـــع

(يصلان إلى حي عامر في الريدة (بلاد البدو) . يذهب عامر لسقي جمله وإراحته ويسلم هماما لأخته ناهية)

ناهيـة : (منتقبة لا يرى منها إلا عيناها)

أهـــلاً بمـــن وافـــى   دار أخـــي عـــامر
إنــزل علـــى الرحـــب   في المـــنزل العـــامر
وأمـــر بمـــا شئـــت   فإنـــك الآمـــر

(تهئ أدوات القهوة وتباشر إصلاحها)

همام : بـــورك يـــا أخـــتُ   فيـــكِ وفي عـــامر
سَـــرَّيْتما عـــني   بلبـــاليَ الثـــائر
سماحـــةُ البـــادي   يجهلهـــا الحـــاضر

ناهية : **(منادية)**

هلـــمّ يـــا سُـــعْدَى   هلـــمّ يـــا لُبْنَـــى !
لنلـــمّ حيّـــين   ضيـــف أخيكنَـــا

(تدخل فتاتان جميلتان متلثمتان وتصافحان هماما . ينظـر إلى إحداهما همام نظرة كالسهم . تلاحظ ناهية ذلك) .

ناهية : **(لهمام)**

إنـي أرى عينيـك عيـني شـــاعر   قـل مـا تشـاءُ ويـك لا تحـاذر
لا بأس عنـــدنا بلحـــظِ الناظر   إنّا نـــرى العفّـــة في الضمائـــر

همام : رأيـــت بــدرًا نصفـــه في السحب والنصف مبـين
هـبي عليهــا يــا نسـيم واكشـفي ذاك الجبـين !

(تضحك الفتيات وتقهقه ناهية)

ناهية : لــو أزاحــت لثامهـــا لــك مــا أنــت فــاعل ؟
ولــو انجــابت السحائـــ ـــب مــا أنــت قــائل ؟

همام : ســأريها الغِــزال لــو أن بــدرًا يغــازَل
وســترويِ روائعـــي في هواهـــا القبـــائل

ناهية : همــامُ ! مــا البدويَّــا ت عنــد غيــد المدائــنْ ؟
الموقَــراتِ مــن التــبرِ حاليـــات المحاســـن
كأنمـــا أنـــتَ بـــالبَد و ســاخر أو مداهـــن !!

همام : لا والــذي فلــقَ الحَــ ـــب ، سـرُّه فيـه كـامنْ
لفـــي المَهَـــى البدويَّـــا ت معجــزات المحاســـن
لحـــاظهن ســهام لهـا القلــوب . كنــائن
قدودهـــن رمـــاح في كـــل قلـــب طواعـــن
جمـــالهن الطبيعـــي زاخـــر بالمفـــاتن

ألم تسمعي ما قال شاعر يعرب أبو الطيب السامي على كل شاعر
تحامي حسان الحضر في الشعر ناسبًا بما في البوادي من مهيّ وجآذر
ما أوجه الحَضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب
(حُسن الحضارة مجلوب بتطْرِية وفي البداوة حسن غير مجلوب)

(يدخل عامر)

عامر : يا مرحبًا بهمام النَّدب إنزل على سعةٍ على رحب !
هل تشركوني في حديثكم فلعلّكم تجلونَ من كربي

ناهية : ضيفكَ يهوى البدويَّات ولا يحب الحضريات

عامر : أتحِبُّهن همام ؟ إنك شاعرٌ ماذا تعشَّق في ظباء الباديه ؟

همام : أهوى بساطتها وأهوى دلها ولحاظها مثل السهام الماضية
وتُميلني سكرًا طِوال قدودها وتَشوقني منها الخلال العاليه

عامر : إن كنتَ تعشقها فخذ لُبْنى **(مشيرًا إلى لبنى)**
وخذ إن شئتَ سَعدى **(مشيرًا إليها)**
(مشيرًا إلى ناهية) أو فخذ لك ناهية

(يضحك الجميع ويضج المجلس بالضحك)

ناهية : أما أنا فلا أحبُّ شاعرا يَلفِظني تمرًا ويهواني رطب

يُطالع الغيدَ الحِسانَ دهرَه فكلما أبصرَ حسناءَ نسب

همام : إني لأدرى من طباع الغيد ما يُبين لي من قولك المشْتبَها
لا شيء كالشاعر أحظى عندها وإن تكن تكرهه زوجًا لها

عامر : بأيِّ شيءٍ يفْضلُ الشاعر يا همام عند الغانيات من عداه ؟

همام : لَقبلةٌ واحدة من شاعر أحلى وأشفى من ألوف من سواه
يودِعها مُهجته فيرتوي منها الهوى . وينقع الحب صداه
يطبَعُها على الجبين ذاكرًا كل خليل في الزمان وهواه !
كأنما يجمع تاريخَ الهوى بقبلة الخدَّين أو لثم الشفاه

(ينتفض انتفاضة فجائية كأنما تذكر أمرًا عظيما . ويبقى ساعة في ذهول)

أستغفر الحب لقد أشركتُ في عبادته
ماذا أقول لحبيبي خُنته في غيبته ؟
أيدَّعي هواه مَن يُخفِره في ذمته

* * *

كأنني بالحب يلو ني بسوط نِقمته
ألحدتُ في توحيده لم أخشَ من عقوبته
أكلما لاح جمال هِمت في صبابته ؟

ناهية : عـامر ! مـا للضيـف لجَّ غارقًـا في غشـيته ؟
إنـي أخـاف أن يصـا بَ في الحمـى بميتـه

عامر : دعيـه ! خليـه ! فـإني عـارفٌ بمحنتـه
سـينجلي عنـه الـذي أصابـه مـن سـكرته

همام : (باقيًا في ذهوله غير منتبه لما بين يديه مستطردًا في حديثه)
يـا حسـنُ ! لا تعـاقبي عبـدك في جريمتـه
فقـد أتـاك تائبًـا مـن ذنبـه وهفوتـه
مـا كـان إلا عـابدًا حُسـنك في قداسـته
يشـهَده في كـل وجـهٍ زاخـر بفتنتـه
في طَلعـة البـدر ، وفي الظـبي وحُسْـن لفتتـه
وفي زهـور الـروض في ربيعـه ونضرتـه
وفي وجـوه الغيـد شـيءٌ مـن ضيـاء غُرَّتـه
يختلـف المحـراب والـربُّ بوحدانيتـه

(يدار بعامر ويغشى عليه . ترتاع أخواته وتأخذن في تنبيهه برش الماء عليه)

ناهية : عامــــر!

عامر : هــــا !

سعدى : عامــــر !

عامر : هــــا !

لبنى : عامـــــــر !

ناهية : قــم يا عامـــر !

همــــام

همام : **(مفيقًا من ذهوله)**

مـا لعـامر ؟ هــل نـــ ـــام ؟

ناهية : **(لنفسها)** يهــذي الآخــــر !

(ثـم همـام) أمـا تـراه سـاقطًا مغمـى عليــه يـا همـــام ؟

روعتمــــــا قلوبنـــــا الليلــة في هـــذا الظـــلام ؟

همام : لا تخـافي سـوءًا علـى عـامر إنـي لأدرى بمـا يعانيـه عـامر

أسمِعيـه اسـم زوجـه يصــ ـحُ من إغمائـه

ناهية إنهـا لـزوج غـادر !

همام : إن تكـن غـادرًا فـإن هواهـا لجَّ في نفس عـامر والشراشـر !

ناهية : إنـه قـد سـلا هواهـا ؛ أيهـوا ها وقد آثرت عليه ابن جابر ؟

همام : صدّقينـي بأنــه مـا سـلاها إنـي عـارف لـه ومخـامر

ناهية : غصــنُ ! يا غصــنُ !

عامر : (يمسح جبينه)

أيـــن غصـــــنٌ أجـــــاءت ؟ مرحبًـا مرحبًـا بـأكرم زائـر !!

راجعيــــي يـــا منيــة القلـــب بـا لله فـإني لما جنيـتِ لغـافر !

(بصوت منخفض)

أو فخافي من عامر فسيرديـ ـك ـ على رغم أنفه ـ وابن كاسر

(يجلس فلا يرى إلا همامًا وأخواته)

أين غصنٌ أيممت جهة المخدع؟

ناهية : يـا عـامر انتبـه يـا عـامر !!

لم تجئنا غصن ودع عنك غصنًا إنَّ في حيِّنـا مئـات الحرائـر !

همام : (لعامر)

عـامر قـم بنـا نصـلّ فرضنـا

(يلتفت للنسوة)

وقمـنَ أنـتنّ فهيئـن الوضـوء

وقمـن صلـين جميعًـا خلفنـا

ناهية : ويحك هل على النساء مفترض ؟

لا نعـرف الصـلاة هـل تريدنـا مثـل الرجـال للصـلاة ننهـض ؟

حسـب الفتـاة عندنـا اسـتقامةً بـأن تصـوم الشـهر إذ ترمـض

عامر : حتـى الرجـال بعضهـم يصلـي والأكـثر الأكـثر مـن تخلّـى !

وكنـت فيمـا مـرّ مـن أيـامي أخشـى من الخمس على أنعامي

فإن غضبت مـرة على جمـل رميتــه بركعتيــن فاحتمـلْ !

حتى علمتُ بعد ذاك أنه   وهمٌ فأقسمت لأتركنه
ومنذ ذاك ما تركت الخمسا   وما رزئت بَكرةً أو عنسا

همام : رباه هل تبلغ دعوة النبي   إلى ربى الصين وأقصى المغرب
وتخطئ الدعوة أرض العرب ؟؟

عامر : همام ليس الذنب للأعراب   الذنب ذنب قارئي الكتاب
من ساكني الحضر ذوي الألباب   إذ لم يشوا دعوة الوهاب
في البدو أهل الجهل والغلاب   وعطّلوا بأوهن الأسباب
وصية النبي والأصحاب

همام : **(في أسف وحزن)**

شغلتهم قبابهم والقبورُ   أن يقوموا بدعوة أو يسيروا
حسبوها في نسكهم كل شيء   فعلام الإدلاج والتهجير ؟
كل (شيخ) و(سيد) عنده قبر   إليه التيسير والتعسير !
وإليه اللجا وفيه المرجَّى   وعليه التكلان وهو المجيرُ
كاشفَ الضرّ إن أُصيبوا بسوءٍ   فإليه ابتهالهم والحضور
وإذا ما ابتغَوْا قضاء مرام   فإليه قربانهم والنذور
كيف ترجى هداية البدو منهم   وهمُ عن سنا الهداية عور ؟
إن حسب البداة أن يستظلوا   في حمى دَجلهم وأن يستجيروا
ويكونوا على هواهم نزولا   بيديهم شئونهم والأمور
حسب ذلك الخضوع لِيُضحُوا   سُعداءً وذنبهم مغفور

آه لو هُذِّبَ البداةُ لأمسوا وبهم للأنام خير كثير
ولكفوا عن قتل بعضهم البعض وقَطع السبيل وهو كبير
ولساد الأمانُ وانبسط الخير وزال الشقا وعم السرور

* * *

المشهد الخامس

(تشرق الشمس ويقوم عامر يشد جمله وهمام يشد حماره يتهيآن للسفر)

همام : **(راكبًا على حماره وعامر يحث جمله)**

عامر ما كان حديث البارحة ؟ سوء ختام بعد حسن فاتحة

عامر : أنت الذي شَببتَ بالتذكار نارًا بقلبي يا لها من نار !

همام : كيف انطرحت ساقطًا مغمى عليك ؟!

عامر : كيف هذيت والنسا بين يديك

همام : لا . ما هذيت ...

عامر : وأنا لم أنطرح وإنما قلت لجسميَ استرح !!
أوّاه ! لو لم تكن اليوم معي لكان لي شأن مع الخِب الدعي !

همام : يا عامر اتّئدْ وخلِ الطيشا فقتلك النفس يُمرُّ العيشا
دعها وما اختارت وخذ سواها فأبلغ النفس بها مناها

عامر : همام هبها لك هل تقوى على أن تلزم الصبر على هذا البلا ؟
لا والنبيِّ المصطفى المختار !

همام : ويحك ! لا تحلف بغير الباري
فإنه نوع من الإشراك بخالق الأكوان والأفلاك
وقد نهانا عنه سيد البشر أليس في قول الرسول مزدجر ؟

عامر : أقسمت بالله ورب البيت ورازق الحي ومحيي الميت
لأسقينَّ النغْلَ موتًا أحمرا وأروين من دمائه الثرى
وأفتكنَّ بعده بالفاجره أقذِفها قبلي لدار الآخره !

همام : يا عجبًا تقتلها وترتقب بعد لقاءها بدار المنقلب ؟

عامر : إني أحبها ، ولولا حبها لكان مني الطلاق حسبها
تأبى عليَّ غيرتي عليها تركي سوايَ آويا إليها
يرغم أنفي أن أسومها الردى وبعدها سوف أموت كمدًا !

همام : ألا تخاف غضب الرحمن في قتلك الأنفس بالطغيان ؟

عامر : من ذا يخاف الله بعد اليوما ؟ قد ذهب الناس فخل اللوما
أنت تقول الحلف بالنبي محرّم في شرعه السوي
فانظر إلى الأنام هل تورعوا عنه بنهي المصطفى وامتنعوا ؟
أما تراهم يلهجون بالقسم جهلاً بكل رمة من الرمم ؟
يرون إيلاءً بعبد الله أعظم من إيلائهم بالله

همام : ما أنت والناس ، عليك نفسك فليس من يدخل منهم رمسك
أعزز علي أن أراك عاقلا منور الفكر وتغدو قاتلا

عامر : همام إني شاكر ودادك ونصحك الممحوض واجتهادك
فإن أطقت الكف عن ضلالي فالفضل للنصح النفيس الغالي
وإن تغلّب الشقا عليه فلست إلا من بني غزَّيه !

* * *

الفصــــل الرابــع

المشهـــد الأول

« همام ـ خارج باب مدينة الشحر ساحل حضرموت عائدًا إلى سيوون ـ بعد أن قضى عامين ببلاد جاوا ـ راكبًا على حماره ومعه دليله النجاب حاملاً فوق ظهره رزمة من الكتب في غلاف من الشمع المتين » .

همام : أسـرع السـير يـا دليـلْ ! أسـرع السـير يـا دليـلْ !
إن بـي ظمـأةً لمـا ءِ بسـيوون سلسـبيل
بُـلَّ مـني صـدى الجـوى واشـف مـن جـوفي الغليـل
ليت شعري ـ وكـادت النفـ ـس مـن يأسـها تسـيل
ومضـت أربـعٌ طـوالٌ ـ وعمـر النـوى طويـل ـ
في انتظـاري ـ والانتظـا ر لأهـل الهـوى قتـول
أتـرى الوصـل لي متـا ح أم الوصـل مسـتحيل ؟!
أئـذا مـا دنـوتُ ميـلا تبـاعدْتُ ألـف ميـل ؟!
قسـمًا بـالحبيب ! ـ أستغـ ـفر اللّـه ! ـ بـالجليل
لا أرى الوصـلَ ممكنًـا أو أرى وجـه الجميـل
وأراه بعـين رأسـي بـلا حـائل يحـول !
وأحـسّ اليمـين في فرعـه مـرة تجـول !

ضاق صدري ، وعيل صبـ ـري وضلتْ بي السبل !!
وتناهى بيَ الجوى وبرى جسميَ النحول
وتداعت أضالعي من نشيج ومن عويل
واستحالت قريحتي من ذكاء إلى ذهول
أتهادى كشاربٍ أوْهنَتْ ساقَه الشَّمول !
جاحمٌ في جوانحي يتلظى بلا فتيل
كلما قلتُ : ذاب قلبي وغالتْه منه غول
رجّ صدري خفوقُه فتوقعْتُ أن يميل !!
فحنانيك لا تَلم ! أو فلُمْ أيها العذول
ليت شعري هل لي إلى ما تمنّيتُه وصول ؟
فأمانيّ أوشكتْ أن تموت من الذُّبول
أبحَقلي وحدي أنا الجد ب والخصب في الحقول ؟!
أسرع السير يا دليل أسرع السير يا دليل !

النجاب : يا أخا الحضر هل ترى رجلاً سيره ثقيل ؟
لست أحتاج أن تقول : أسرع السير يا دليل
لي من النفس سائقٌ ينهب الحزْنَ والسهول
أختشي أن يفوتني « نصر » نجّابُ (باعقيل)
(يصمت قليلا ثم يقول)
أين نصرٌ مني ؟ وأين من المضمر الهزيل ؟
أنا سَيْري منظم لا بطيء ولا عَجول
وهو يشتدُّ في الذّميـ ـل فيعتاقه الذميل

أنـا غـول القفـار وابـ ـنُ الديـاميم والمجـول
لا أبـالي إذا مشـيْتُ أذى الشـمس والوحـول

همام : مـا لتجارنـا عبـاديد شـتى يتبـارَوْن بغضـة وحقـودا
كـثروا عـدة وقلّـوا غَنـاءً وأضـاعوا بالافـتراق الجهـودا
وغـدَوْا كـلٌّ واحـد بـبريد مـا لهم لا يوحـدون الـبريدا ؟
فيطيقـوا إرسـاله كـل أسبو ع ويجروا بـه نظامًـا سـديدا
إن في طوقهـم لـو اتفقـوا أن ينشئوا السفْن في البحار عديـدا
وبها يستغنون عن سُفن لأجـ ـنب يصليهم العذاب الشـديدا
ولقد كان للحضارم في البحـ ـر سفين أيام كـانوا أسـودا
جاريات من الخليـج لبحر الـ ـهند حتى (أندونيسيا) لتعودا
داؤنـا أننـا نخيـب جماعـات وقـد نـدرك النجـاح فـرودا

أسرع السـير يـا دليـل ! أسرع السير يا دليـل !
واصـل السـير لا مبيـت ـ إذا شئت ـ أو مقيـل

النجاب (**متهكمًا**) :

أسـرع السـير يـا دليـل أسـرع السـير يا دليل
هـل ترانـي طيـارةً هـل تراني أُوتومبيل ؟؟

(يشير بيده إلى طريق السيارات التي بدئ بإصلاحها بحضرموت بين الساحل والداخل حيث يرى العمال يشتغلون بتعبيدها)

دونـك انظـر طريقـه ! فتُنهَـى عمـا قليـل
همام : ليتـه قـد مشـى فـأو صـلني الليلـة (السحـيل)[1]

(١) الجانب الغربي من سيوون .

النجاب : لا رعى الله عهده إنه عهد عزرئيل
لا تقدره يا إلهي وعسّر له السبيل !
وإذا تمّ فابْلَهُ بأذى البدو والقبيل !
وإذا ما مشى فلا فارق الوحل والسيول !
همام : قل لي لأية علة أبغضت خلقًا من حديد ؟
ماذا جناه عليك حتى خلته الخصم العنيد ؟
النجاب : هو قاطع رزقي القليل غدًا وأرزاق العديد
من كل جمَّال وحمّار ومشاة بالبريد
أتريدني كالحضر إذ خالوه مفتاح السعود ؟
وبشير آمال النهوض وفجر أيام الصعود
تعِسوا وخاب رجاؤهم وتعثرت بهم الجدود !!
همام : (لنفسه)
فهِمَ الفتى البدويُّ ما لم يفهم النَّسُ الرشيد
(ثم للنجاب)
حُيِّيتَ من فطِن فداؤك كل ذي ذهن بليد
ما قلتَه كاف لِمْقَتَ ما يضر ولا يُفيد
ووراء ذاك سوام أبرصَ تنفث السم المبيد
سُلٌّ الممالك والشعوب وهيضة العصر الجديد
من كل لص قاتل للمال والخلق الحميد
لكن ظلم الناس بعضهم لبعضهم عتيد !
ليعيش فرد واحد لا بأس من شعب يبيد!!
ولسوف يجنون الندامة منه والأسف الشديد !

المشهـــد الثانـــي

« منبسط من الأرض فسيح يرى في آخره من جانب الوادي مدينة « سيوون » على بعد بحيث لا يتبين الناظر إليها إلا بياض منائرها وأبنيتها العالية محفوفة بهالة عظيمة من خضرة النخيل المحيطة بها من نواحيها » .

همام : أهــذه ســيوون أم جنــة عــدنٍ أزلفــت للمتّقــين
للّـــه مــا أجملهـــا مَنظرهـا الزاهـي يسر النـاظرين
تحسبها ــ من بُعْــدٍ ــ حديقةً خضراءَ تسقى من معين
قــد نــثرت في تُربهــا جنابذُ اللؤلـؤ والـدرُّ الثمــين !
تفـــوح في أرجائهـــا روائـح الـورد وَعـرف اليـاسمين
يحنــو عليهــا جبَـــلٌ كما تضمُّ طفلها الأمُّ الحنـون !
تضـــرب في أجوائهـــا منـائرٌ تخفـــى مـــرارًا وتبـــين
كأنهـــا أعمـــــدةٌ قامت عليهن السماوات المتـون
تجعلهـــا الرِّيـــاح في تَلعابهـا أهدافهـا إذ ينـــبرين
أو كفـرون حـامل الـــ أرض على قرنيهِ فيمـا يزعمـون
أثقلـــه آثامهـــا فمرَقتْ من جوفها تلك القرون
قِبابهـــا زاهيـــةٌ لو لم يكن حرمها أسمـــح دين

هـدّم بعضهـا (بنـو الـــ ـتوحيد) فيما قد خلا من السنين
فهـي تـرى كأنهـا بيض نعام أجفلت من صـائدين
ريعـت فداسـت بعضـه فهو علىَ الأرض فليقٌ وطحين

* * *

لئـن يكـن منظرهـا وحسنها الزاهي متاعَ المبصرين
فـإن في مَخْبرهـا خير متـاع لقلـوب النـازلين
تفـرّدَت حِسـانها بالظرف واللين إلى خُلـق متين
ورقـةٍ كأنّهـا نسيب (عبـاس) أرقته اللحـون
كأنّما أنـت إذا جُزتَ بها تخطر ما بين الغصون
إيـاك مـن لحاظهـا إياك أن تصرع من سحر الجفون

يتنهـد

كـأن (حسنًا) أفرغـت على رباهـا مـن جمالها المُبين
نضـارَةَ كخَدِّهـا تَعُبُّ حتى ترتـوى فيهـا العيون
ورقّـة في جوِّهـا كما تندى خَجلاً منهـا الجبين
في مائهـا حـلاوةٌ من ريق حسن ما خمور الأندرين؟
وفي محيّـا شمسـها ملاحةٌ من ذلك الوجه الحسين
وفي قـدود نخلهـا من قـد حُسْنٍ هيفٌ بـه تزين
صباحهـا الفضـة قـد سالت على زمرُّدٍ مـن الغصون
وذهـبٌ أصيلهـا يبعث الأنس ويهتاج الشجون
مـن نحرهـا وثغرهـا ووجنتيهـا سرقا تلـك الفتـون
وليلهـا مُعَنْـبر كفرعها في عَرْفه وفي الدُّجـون

مدينـــــة شـــــبيهها　في حضرموت وسواها لا يكـون

(يتـــأوه)

لـــولا توانـــى أهلهـــا　لقلـت هـذه جـزاء العـاملين

ليـس لديهـم عمــل　إلا قضاء الوقت في لهـوٍ مشين

يشـــقون في غربتهـــم　بالجمع للمال وهـم مقتصـدون

حتـى إذا مـــا وصلـــوا　إلى بلادهـم إذا هـم يسـرفون

كـــأنهم قيـــاصرٌ　يُبَـدِّدون المـال لا يكـترثون

ولا يفكّـــــــرون في　خدمتهـا بـالنزر ممـا يجمعـون

ولا يزالـــــــون في　غربتهـم صناعـة أو يحْذِقـون

لينفعـــوا أوطـــانهم　بهـا إذا عـادوا إليهـا راجعـين

* * *

المشهـد الثالـث

(همـام في مكتبـه وعنـده صديقـه محمـد يـزوره زيـارة خصوصية بمناسبة قرب زواج همام)

همام　:　محمـــدُ

محمد　:　لبيـــك !

همام　:　مـــاذا وراءك مـــن خـــبرٍ ؟

محمد　:　ليس عنـدي خـبرٌ

سوى أن قلبيَ مستبشر بنيل المنى وبلوغ الوطرْ
وأنك سوف ترى من تُحِب قريبًا وينزاح عنك الكدر

همام : أخي أنا في مِرْية بعد في لقاء حبيب فؤادي الأغر
فقد درجت في انتظاري السنو ن وما بُلَّ من ظمأي المستعر
إذا وعدوني جُمادَى اللقا ء تلاشت جُماداهُم في صفر

محمد : همامُ زمان المطال انقضى وهذا أوانُ الوصال ابتدر
أتغري بقلبك بَرْح الشكو ك والوصلُ بعد غدٍ منتظر ؟
وهذي بيوتك قد زُيّنت وأهلوك في نَشَوات الحَبَر
وأكدتُ أمس على المطربيـ ـن - على رغم أنف الذي قد خطر -
بأن يحضُرونا مساء الزفاف وصبحَ الدخول وليل السمر

همام : سلمت وهل رضي المطربو ن بذاك ؟
محمد : رضوا بعد طول النظر
خشُوا المانعين لهم أولا فداويت بالمال ذاك الحذر
ومَنْعُهم الناس أن يطربوا كما يطربون . دليل البطر
وليس بذاك لهم حجة سوى كبريائهمُ والأشر
همام : محمد ! لا أبتغي المطربين على أنني لك ممن شكر
لئلا يقال : لحظٍّ هوا ه دعا للمساواة بين البشر
وإن سروريَ بالوصل لا بمن نقَر الدّف أو من زمر
ولكن سيزدان بالمطربين زواجك ! هلاًّ به تفتكر !!

صديقي إلى مَ تحامَ الغرام ؟ إلى مَ فؤادك مثل الحجر ؟
إلى مَ أراك وحيد الظلام وحيد المقيل ، وحيد البُكر ؟

محمد : همام رويدك !

« يتدره البكاء فيعوقه عن إتمام كلمته » .

همام : **(لنفسه)** ويلاه ما لـ ـصديقيَ أدمعه تبتدر ..؟
أشق عليه كلامي ؟
(ثم لمحمد) محمـ ـد زلّت لساني ألا تغتفر ؟

محمد : **(لنفسه)**
إلـهي أبحتُ بسر الهوى وكنت على كتمه أصطبر ؟

ثم لهمام : صديقي أتحسب أنك سؤ تَ فؤادي ودأبك لي أن تسر
أمثلك يجرحني قوله ؟ فتلك لعمري إحدى الكبر
ويا ابن الأكارم ماذا جنيتَ حتى تَنصلَ أو تعتذر ؟
همام كتمتك جُهدي الهوى ولكن أبى الحب أن يستتر
همام أتعهد مني البكاء همام أتعرف فيَّ الخور ؟!
وكنت ألومك فيما مضى فيا ليتني كنت فيمن عذر !
وأعجب كيف تصول الظبا ءُ على الأسد؟ حتى رماني القدر!

همام : محمد ! لا تحبسنَّ الدموع ودعها على رسلها تنهمر !
فإن القلوب إذا أجدبتْ بحزنٍ فإن الدموعَ المطرْ !
وقل لصديقك أيُّ الظبآ ء رماك وصرّح له بالخبر
فما في الصبابة عار على فتًى طاهر الذيل عفِّ الأزُر

محمد : (يكفكف من دموعه)

همام أتذكر « علوية » نصيرتنا في الجهاد العسِرْ ؟
سليلة طه ، فتاة الحجى ، مِثالَ الكمال مثال الطهُر
أتتني يومًا على حالةٍ تُذيب القلوب وتجري العَبَر
محمد ! هذا أوانُ الغياث وهنا أوانُ تلافي الخطَر
مضتْ ليلتان وما عندنا من القوت شيءٌ به نعتصر
وأختي غارقةٌ في السَّقا م وإني لأحسبها تُحتضر
وزوجةُ عميَ في طَلْقها تعاني المتاعب والوقت قُر
وعميَ سافر منذ شهو رِ فلا عاش مضطرُّه للسفر
وكان لدينا بحانوته يعيشُ ويتجر فيمن تَجَر
فشنّع إخوانه بل عِداه عليه ، وقالوا : لئيم قذِر
يُدنَس أحسابنا إذ يرو ح إلى السوق كالناس أو يبتكر!
فما أنهتِ القولَ حتى غدو تُ ويوشِك قلبيَ أن ينفطر
وأذهلها الحزنُ عن موقفي فلم تتحفظْ ولم تستتر
فأبصرتها من خلال الحجا ب كما لاح بين السحاب القمر!
رأيت الجمال ، رأيت الجلال رأيت الهوى والشباب النضر!
وراحت تنثُّ عليَّ الثنآ ءَ بما قد قضيتُ لها من وطر
وقد تركتني سليبَ الفؤا د قليل القرار ، كثير الفِكَر
أردّد أقوالها في الضمير ترنُّ بأذني كصوت الوتَر !
فهأنذا بعدها يا همامُ قصير الرقاد طويل السهر
رحمتُ فأسعفتُ ثم انثنيتُ وفي كبدي مثلُ وخز الإبر !
فلطفك يا رب فيما قضيت فلم يُنْجِ مما قضيتَ الحذر !

همام : يا صديقي عندي إليك عتاب واطراح العتاب مني قبيح
أكذا تكتم الحوادث عني وبما دونها إليك أبوح ؟!

محمد : يا خليلي إن كان ساءك فعلي فاعفُ عني فأنت عني صفوح
إن عِبءِ الهوى عليّ ثقيلٌ وببثيكَ سرّه أستريح
غير أني كتمتهُ عنك جهدي حذرًا أن ينالك التبريح
ولو أني نظرتُ فيك لحظي يا خليلي للذّ لي التصريح

همام : خف عن ظهرك العناء لظهري فاسلُ عنه فإنه مطروح
إن ما أنت آملٌ سوف أغدو ساعيًا في تحقيقه وأروح
فدع الهم إنها سوف ترضا ك وحسب المليح زوج مليح

محمد : (لنفسه)
هو يدري بأن ما أتوخا ه مُحال من الأمور طروح[1]
فهو يبغي بذاك تخفيف حزني إنني بالأسى إذًا لذبيح

* * *

(١) بعيد .

المشهــد الرابــع

(ساحة كبيرة أمــام بيـت العـروس « حســن » فيمـا بعـد منتصف الليل . يرى هناك جمهور من النساء يصطففـن لزفهـا إلى بيت « همام » تتوسطهن « حسن » عليها غطاء لا تـرى منه . تحيط بهن الوصائف بأيديهن الشموع تتقدمهن القينات المغنيات بأيديهن الدفوف وهن يتغنين بينمـا الجمهـور يتحـرك ويتجه ـ في سير بطيء ـ إلى جهة بيت همام).

القينات : نحــن نــزُف الشمســا والشــمسُ في ضُحاهـــا
فمـــا أجـــلَّ عُرســـا يغمـــــره ســـــناها !

الجمهور : نحــن نـزُف الشمســا والشــمسُ في ضُحاهـــا
فمـــا أجـــلَّ عُرســـا يغمـــــره ســـــناها

القينات : نحـــن نـــزف الحيـــا نحـــن نـــزف الـــمُنى
نحـــن نـــزف الضّيـــا نحـــن نـــزف الســـنا

الجمهور : نحـــن نـزف الشمســـا ... ...
... ...

القينات : يـــا عُصبـــةَ الغوانـــي هَلـــم للتطريـــب !
اشـــدون بالأغانـــي واهتِفْـــن بالنســـيب
واضمُـــدْنَ بالأمـــاني دوامِـــيَ القُلـــوب

الجمهور : نحن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

القينات : حيّيـن بالسـلام هذا الشعاع المسكوب !

وافتـأن بالأنغـام كـل حزيـن منكـوب

الجمهور : نحن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

القينات : روائـح الجنـان تعبق من هـذي الـدُّور

كأنمـا المغـاني أمسَتْ مراقص الحـور!

نحـن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

القينات : نحـن نـزف الملَـكْ في صـورة الإنسـانْ

يجلـو ظـلامَ الحلَـكْ ويقشـع الأحـزانْ

فهـل لديكـم فلَـكْ بنـوره يـزدان !؟

الجمهور : نحـن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

القينات : يـا قمـر السـماء غُـضِ الجفـونَ أغـضِ

بـالذكر والأسمـاء عـوذتُ بـدر الأرضِ

الجمهور : نحن نـزف الشمسـا ... ...

... ...

(يقتربون من بيت همام)

القينات : سُـقْنَ إلى همـام جمـالَ هـذا النـادي

واحـدونَ للضرغـام لبـاةَ هـذا الـوادي

الجمهور : نحن نزف الشمسا ... ...

... ...

في الطابق العلوي من دار همام حيث تستقبل نسوة الدار النسوة اللاتي زففن « حسناً » . تنحاز نسوة الدار إلى جهة ، ونسوة الزفاف إلى جهة أخرى والقينات في الوسط يضربن بالدفوف .

القينات : اليُمْن والإقبال والسعد والسعادهْ

للمُعْرِسين فال والفضل والزيادهْ

شاعرة نسوة الزفاف : نحن نزف الحُسنا نحن نزف بلقَيس !

ثم سائرهن : نحن نزف لُبنى فهل لديكم من قيس ؟

شاعرة نسوة الدار مجيبة : همامنا كالمأمون إن زففتم بوران

ثم سائرهن وهكذا في باقي الأبيات إلى آخرها

وإن تكُن بلقيسًا فإنه سليمان !!

نسوة الزفاف : النصر للعروسة !

نسوة الدار : بل هو للعروسِ !

نسوة الزفاف : للدرَّة النفيسهْ

نسوة الدار : للجوهر النفيس !

نسوة الزفاف للحُرّةِ المصونة وربة الجمال

للدرَّة المكنونة واسطة اللآلي !

نسوة الدار : لمفخر المدينهْ لسيد الرجال

نسوة الزفاف : الناس يعرفونه بكرَم الخِلال

نسوة الزفاف : النور والشعاعُ ووَهج الشموسِ

والجوهـــر اللمَّـــاع وحبَـــب الكـــؤوس
جميعهـــا أشـــياع لهـــذه العـــروس

نسوة الدار : المجـــد والكمـــالُ وكـــرم الأخـــلاق
والقـــولُ والفعـــالُ وحسَـــبُ الأعـــراق
جميعهـــــن آلُ عروســنا الغيـــداق !

نسوة الزفاف : نحـــن نـــزف الحســنا نحـــن نـــزف بلقيـــسْ
نحـــن نـــزف لُبنـــى فهل لديكم من قيـس ؟

نسوة الدار : همامنـــا كالمـــأمون إن زففتـــم بـــورانْ
وإن تكـــن بلقيسًـــا فإنـــه ســـليمان

القينات : كـلا العروسين زيْـنْ للمجـــد والعـــلاء
فـلا تفـاضلن بيْـنْ ســراجي الســماء
أيـــن المجـــرةُ أيـــنْ كواكـــب الجـــوزاء
أصوغهـــنّ لذيـــنْ تـــاجَين بالســـواء

القينات ثم الجميع : يـــا رب باركهمـــا في ذا الــزواج الســعيد
واجعـــل زمانهمـــا كأنـــه يـــوم عيـــد
وانفحهمـــا بـــالوُلْد مثـــل دراري النجـــوم
في ظـل عيـش رَغـدْ وفي صفـــاءِ يـــدوم

(ستـــار)

الفصـــل الخامـــس

المشهـــد الأول

علويــة : (على فراش المرض . حسن تعودها في بيتها) .

علوية : عُدتِني حُسن؟ مرحبًا بـك يـا أخـ ـــتُ !
حسن : وقاكِ الإلـٰـه مـا تحذرينـا !
ما الذي تشتكين ؟ نفسـي فـداءٌ لـك مـن كـل علـة تشـتكينا !
علوية : أقصري حُسنُ أن تمنّيْ على ربـكِ ســوءًا لعلــه أن يكونــا
بل سلى الله لي الشفاء عسى أن يقبـلَ اللهَ منـكِ مـا تسـألينا
أو سـليه ليَ العـزاء فـإني لا أرى الـداء تـاركي أو أبينـا
حسنُ ! إني أُحِسّ في الصدر نـارًا تتلظّـى كـأنّ فيـه أتونـا !
أشرب الكأس بعد أخرى من الما ء فـلا أرتـوي كمـا ترتوينـا
أحسِب المـاء يسـتحيل بجـوفي لهبًـا في الحشـى يئـن أنينـا
أنـا لا أسـتطيع أن أَدَع المـا ء ، ولا المـاء قـادر أن يُعينـا !
حسن : لا تخافي سوءًا فمثلَكِ في العفّـ ـة والنبـل مـا نمَـى الوالدونـا
تبذلـين المعـروف جهـدك للنـا س ، وتولـين منهـم المسـكينا
وتراعـين للجـوار حقوقًـا وتواسـين بائسًـا وحزينـا
وتوالـين مـن يحـامي عـن الحـق وإن غـاظ فعلـك الأهلينـا
فإله الـورى سـيرعاكِ ، لن يتـ ـرك يومًا عبـاده المحسـنينا

علوية : قدْكِ ؛ هذا جميلُ ظنك في أخـ ـتكِ ، لا خيّب الإلـه الظنونـا
إن ربـي بخَلقـه للطيـفٌ يتـولى عبـاده الصالحينـا
غـير أن العبـاد بعضهـم يظـ ـلم بعضًـا ، عـن ربهـم ساهونا
أنظريني هل بي سوى ظلم أهلي لي وأبنـاء عمـي الأقربينـا ؟
وتصدّيهـم لمـا ليـس يعنيـ ـهم ، وعن واجباتهم يعرضونـا
مات زوجـي ووالـدي فلم يُبق لي الدهـر عـائلاً أو خدينـا
غيرَ عمي ـ وأنت تدرينَ ما عمـ ـي ؟ فقـيرٌ ينـاهز الستينا
قد وهَى جسمُه ، وخارت قـواه وابتـلاه السـقام حينًـا فحينـا
ألجـأوه إلى السُّـفار ليجلـو عنهـمُ العـارَ ، هكـذا يزعمونـا
زعمـوا أن بيعـه وشـراه يكسوان الأشراف في القطر هونـا
ثم إنـي مكثتُ في عصمة الأيْـ ـم وفي رِقْبـة الـزواج سـنينا
لم يجئـني منهـم ليخطُـب ودّي أحـد غـير فتيـة عاجزينـا
وأبـي عـالم وجـديَ حِـبرٌ وأصـولي أئمـة متقونـا
ولعـل المـرآة تصـدق عـني إن وجهي ما كان في الحسن دونا

حسن : بـل تعالى الـذي بـراكِ ، وحـلاّ كِ جمـالاً يحـيِّر الناظرينـا !
سـطعت أنـوار النبـوّة فيـه فاستحالت مباهجًـا وفتونـا !

علوية : وأتـاني محمـد وهـو مـن بيـتٍ حسيب أصـلاً كمـا تعلمينـا
رجـل يمـلأ الصـدور كمـالاً وخـلالاً كمـا يسـر العيونـا !
كـان لي كلمـا تضـايق حـالي سـاعدًا قبـل خطبـتي ومعينـا
وهو كفئى وكـفء أفضـل مـني حسـبًا أو فضيلـة أو دينـا
فـأتوْا يزجرونـي عنـه حينـا ويسـومونني التهـدُّدَ حينـا
مـا رأوْا لي من قبـل ذلك دارًا فأتـوْا بعـد ذاك يستبقونـا

ما ثناهم عن خطبتي غير فقري ليس عندي ملمال ما ينشدونا
ذهبوا لابنة الغني وإن لم يك من بيتهم وإن كان دونا
وانبروْا يمنعوننا من سواهم فلمن ويْحَنا إذًا يتركونا ؟
فدعيني يا حسن أبكي مصابي ! بِمَ أبكي وقد أرقتُ الشئونا ؟
رب ! كن لي وللتعيسات مثلي ليس بين الأنام من ينصفونا

(لا تتمالك حسن عن البكاء فتنهمر الدموع من عينيها)

علوية : مِمّ تبكين حَسنُ ؟
حسن : من أجل بلوا كِ فؤادي أحسه مطعونا !
تب ذا العيش! لا هوى ليَ في العيـ ـش إذا لم تحظَيْ بمن تعشقينا
علوية : أقصري حسن! بل يظل همام بك في غبطة بها تسعدينا
حسن : نحن نحيي وأنتما ؟
علوية : فوقنا اللّـه سيأسو جراحنا ويلينا
فوقنا اللّـه ..
حسن : فوقنا أيضًا اللّـه سيأسو جراحنا ويلينا

* * *

المشهـــــد الثانـــي

(حسن في غرفتها . همام داخل إليها) .

حسن : حبيبـــي ؟

همام : أجـــل مُنيـــتي !

حسن : أمـــا لـــكَ في قبلـــة ؟

تعـــال إلى جـــانبي أمـــا لـــكَ في ضمـــةٍ !

همام : **(يهوى إليها)**

بلـــى يـــا حيـــاةَ الفـــؤا د ، ولبيـــكِ يـــا مهجـــتي !

هبيـــني لمـــاكِ هبيـــنَ أطفـــئ بـــه غلـــتي !

هلمـــي نطُـــف بالحيـــا ة كـــالنحل بـــالزهرة !

فمـــا في المنـــى مثـــل قبـــ ـــلة الـــزوج للزوجـــة !

ننـــال بهـــا نعمـــة وحســـبكِ مـــن نعمـــةٍ

ونجـــني بهـــا لـــذّة ونـــاهيكِ مـــن لـــذّةِ

وهـــل كنعيـــم يجـــيء مـــن الله بالرحمـــة ؟!

حسن : حبيـــبي ! أمـــا لـــك عـــن هـــوى الشـعْر مـــن توبـــة ؟!

أبـــي أنـــا وحـــدي نسيـــ ـــبُكَ أم بـــي وبالنســـوة ؟

أرى نَـــبَراتِ العُمـــو م تعصِـــف بـــالوحدة

همام : حبيبـــة قلـــبي ! أقِلّـــي علـــيَّ مـــن الغـــيرةِ

هلـــمَّ ادخلـــي للفـــؤاد وافضِـــي إلى الحبّـــة !

فهـــل تجديـــنَ بهـــا لغـــيركِ مـــن عُلْقـــة ؟

حسن : كـــذا فلتكـــن ليَ في حيـــاتي وفي موتـــيَ
فمـــا في حيـــاتي خشـــيتُ بـــل بعدهـــا خشـــيتي !
حبيـــبي اغتنـــم ســـاعة مـــن الصفـــو والبهجـــة !
فقـــد لا تطـــول حيـــا تـــي ، وتقصـــر بـــي مدّتـــي !

همام : دعـــي عنـــكِ هـــذا ، وقـــو لي ســـوى هـــذه الجُملـــةِ
بربـــكِ لا تذكـــري لنـــا شـــبح الفُرقـــة !
فلـــم نســـترح بعـــد مـــن متاعبهـــا الجمّـــة
ولم نقْـــضِ بعـــض اللُّبـــا نـــةِ مـــن هـــذه اللُّقيَـــةِ
حبيـــبيَ لا تَلْحِنِـــي واشـــفِق علـــى عَـــبرتي !

حسن : (**تبكي**) أحـسُّ كـأن الحِمـا مَ منّـــي علـــى خُطـــوة !
ويهمـــس لي خـــاطري بـــأني علـــى رحلـــة !

همام : دعـــي عنـــكِ هـــذي الوســـا وسَ ، جســـمُكِ في صحـــة
ووجهـــكِ هـــذا الجميـــل ينبُـــع بـــالنَّضرة
وســـوف تجوزيـــن عُمـــرَ جـــدّكِ والجـــدّة

حسن : سَـــلِمْتَ حبيـــبيَ لي !

همام : ولي أنـــتِ يـــا بُنْيـــتي !

حسن : لقـــد زال عنّـــي الـــذي شـــعرت مـــن الخيفـــة
وذابـــتْ همومـــيَ مِنْـــك في كوثـــر الجنّـــة

همام : فديتُـــك ! حُسْـــنٌ ســـتبقى ببيـــتيَ كالشـــمعة !
وتـــأذنُ لي بـــالرّحيل لأمَ القـــرى مكـــةِ
وتدعـــو لي الله أن يُقصّـــرَ مـــن غيبـــتي
كمـــا ترتجّـــاه أن يحقّـــقَ لي طِلبـــتي

حسن : أحجًّــاً تُريد ؟

همام : أجــــل وشــيئًا مــن القُربــة

لأســعى هنــاك لتزويــ ــج خلّــيَ مــن خلّــتي

محمـدُ حِلْـفُ الفـراش ينــوءُ مـــن العلّــة

أضـــرَّ بـــه اليـــأس في هــــواه لِعَلْويَّـــــة

وأخشــى عليـــه المنيّـــ ـــة مــن هــذه الصدمــة

وأخــبرني أنـــه يمـــتُّ إلى العِـــترةِ

وأنَّ بـــأم القُـــرى معالـــمَ ذي النِســبة

فقــد جــاء منهـــا أبـــو هُ إلى هـــذه البلـــدة

وفتــشَ في النســوة الـــ ــشرائف عـــن زوجـــة

فقـــالوا لـــه : لانتمـــا ئــك في بيتنـــا أثْبِـــتِ

فثـــارتْ بـــه غضبـــةٌ وبـــورك في الغضبـــة !

ومـــالت بـــه عـــزّةَ وبـــورك في العـــزة !

وقـــال إذا لم يكُـــنْ لـــديّ ســوى نِسْــبَتي

فـــلا بـــارك الله في خـــلالي ولا همّـــتي !!

وزَوجـــه ذو الجـــلا ل مــن أمـــه الـــبرةِ

فعـــاش ســعيد الفـــؤا د بهـــا هـــانئَ العُشـــرة

كـــذا عـــن أبـــي أمِّـــه حكـــى مُجمـــل القصـــة

حسن : همـــام ! بيُمـــن الإلـــ ـــه وفي الحفـظ والعصمـة !

يرافقـــــك الله في خُطَـــى هـــذه السَّــفرة

وإنـــــي لمســـــرورةٌ برعيـــك للصُّحبـــة

ومَـــنْ كمحمـــدَ في ولائـــك والذمـــةِ !

بحبّـــكَ عطْفـــي عليـــه   وحُبّــــي لِعلْويـــــة
ألم يســــعيا قبـــــلُ في   دخولــك في عصمـــتي ؟
ألم يــــذلا الجُهـــد في   هنـــائكَ أو غبطـــتي
وقـد عدتُهـا أمـسِ وهـي   تَقَعْقَــعُ بـــالزفرة !
بِنَفْـسٍ تريـد الحيـــاة   علــى جســدٍ ميّـــتِ !
تنـوح علـى نفســها   وتزخـر بالحســـرة !!
وقــد أنفــدَت دمعهـــا   فتبكــي بـــلا دُمْعـــة !
رثيـت لهـا يـا همـام !   وخفْــتُ علــى خلــتي
لأنــي أراهــا تُشــير   إلى المــوت مــن خُفْيــة !
فمــن أجلهــا يــا هُمــام   شُــكوكيَ في صحـــتي
وإحســاسُ قلـبي بــأني   قريـــب مـــن النُّقْلـــة
ولكـــن لعـــلّ الإلـــه   يكشـــف مـــن محنـــتي
ســأمضي لتبشـــيرها   وتفريجهــــا بـــالّتي
لعـــلّ بهـــا أن تكـــفَّ   مِــن عَلَــن اللوعـــةِ !

* * *

المشهـــــد الثالـــث

(محمد على فراش المرض . ليس عنده سوى أمه العجوز تعلله من حين إلى حين وتدخل عليه الخادم بمكتوب فيفضه بيد مرتعشة فإذا هو من حبيبته علوية وإذا فيه) :

يا حبيبي ! مـني عليك سلامٌ   وسلام الرحمن فوق سـلامي
يـا حبيـبي إن المنيَّـة جـامٌ   كلنـا شـاربٌ بـذاك الجـام
والسعيد الذي يموت سليمَ الـ   ـقلبِ عَفَّ الرداء من كل ذام
فمتى جـاءكَ النَّعِـيُّ بموتـي   فترحم علـى شـهيد الغـرام !
أنا في النزع يـا حبيبي فصبرًا   لا تَضعضَـع لحـادث الأيـام
ووداعًا! إلى اللقاء! على الكو   ثر! في الخلد! في جوار السلام!
إن تحلْ بيننا الحيـاةُ ففـي الخلْـ   ـدِ سنحظى بلقيـةٍ ووئـام
سيرى الحـائلونَ دون الحبيبَـ   ـين جزآء الإلـه ذي الانتقـام

علويَّة

محمد : **(يتقلب على الفراش ذات اليمين وذات اليسار بجهد ومشقة)**

هي في النزع! آهِ ما أعظم الخطـ   ـب وأقسى على فؤادي الدامـي!
هي في النزع! ربِّ هَون عليهـا!   حسبها مـا رأتْ مـن الآلام!
منعوهـا الحياة ظلمًـا فـأودَوْا   بحيـاةٍ بريئـةِ الأحـلام
رب! لاخير في الحيـاة! فألحِقْـ   ـني بها واكفِني عنـاء السَّقام
هي روح الوجود مني وما يُصْـ   ـنعُ بعد الأرواح بالأجسـام ؟

أكـذا نـتركُ الوجـود ولم نحـــ ـــظَ بوصـل ، ولم نفُـز بمـرام ؟!
أكـذا يُرفـــع البســاط وعــا دا رَتْ على العاشقَين كـأس مـدام ؟

(يحاول أن ينحرف إلى جنبه فلا يستطيع من الضعف والإعياء)

رب مـاذا أحِسُّ ؟ هـذا فتـــور عجَب في مفـاصلي وعظـامي !
خار جسمي فما أطيق حراكًـا! وتنـــاهت بُـــرودة الأقـــدام
مـا لرأسـي أضحـى عليَّ ثقيـلاً وجفونـــي يُغْريــــنَني بالمنـــام !
ويدي لا تطيق حمل سِـواكي ! ولسـاني تعـثرت بـــالكلام !
وفـــؤادي دقاتــــه تتـــوالى علَّ هـذا نذيـرُ قـرب الحِمـام

(يتذكر صديقه همامًا)

أيـن ولَّـى همـامُ ؟ يـا ليتـه عنـــ ـــدي أراه في مُنتهـى أيـامي !!
نضـر الله وجهـه مـــن صديـق مخلـص لي على مـدى الأعـوام
كم هداني من الضـلال، وكـم عبّـ ـــد سُبْل الحيــاة مــن قدّامـي
أمّ صوبَ الحجاز في لفحة الصيـ ـــف حريصًا على قضاء مرامي
ليـس يـدري أنـي بمدْرَجَـة المـو تِ وأنـي علـى شـــفير الرِّجـام
ومضـى غـيرَ عـالم أن حُسـنًا مُنِيَـــت بعـــده بحُمَّـــى لِـــزَام
ليت شعري إن جاء نعيي همامًا ثـم مـاذا تكـون حـال همـام ؟
أو أصيبت ـ لا قدر الله ـ حسـنٌ فهـي أدهـى فجـائع الأيـامِ !
وهـــو في غُربـــةٍ وليـس لديـــه من يهـــدِّي فـؤاده المـترامي !
مُـــنَّ يـا رب بالشِّـفاء عليهـــا لا تذَرْهـــا رَمِيَّـــةً للســــهام

* * *

إن مِن خلفها فتًى ينصـــر الحق جهـارًا وعن هـــداك يحامـــي

شعَّ من هديه على القُطْر نور فـإذا مـات عـاد للإظـلام
واستعاد الجمودُ سلطانه الضخـ ـمَ ، وعـزَّت سواعد الأوهـام
هي سُلوانه الوحيـد مـن الدنـ ـيا إذا ضاق بـالخطوب العظـام
عَوْنُـه إن جنـى الجهـاد عليـه وأراه تنكُّـر الأقـوام

(يمسك بيديه على أضلاعه)

يا فؤادي دنـا الخـلاص! فصبرًا سوف تسلو هذي الجراح اللوامي!
وستلقى الحبيب في ربـوة الخلـ ـد يحييـك ثغـره بابتسـام !
وسـأغدو إلى الإلـه فيعفـو عـن ذنوبـي وسـالف الآثـام
وسأشـكو إليـه مـن رَزَأوني ـ في ربيع الحياة ـ في أحلامي
وأراقوا دمي البريء ، وضحَّوْا بحبيـبي في مذبـح الأوهـام !
تخـذوا الديـن جُنـةً يتوقَّـوْ ن بهـا في الورى سهام المـلام
فسـيدرون أنـنيَ عَلَـويّ تنتهـي نسـبتي لخـير الأنـام
غـير أن الحِمـام أهـون عنـدي مـن فخـاري بـالجد والأعمـام
وادِّعائي بـه علـى النـاس فضـلاً يتقاضـاهُمُ رسـوم احـترامي !
عَزَّ دين الإسلام ! قد جعل النـا س سـواء في شـرعه المتسـامي
لم يـدع ميزة لزيـد علـى عمـ ـرو ، ولا حارث علـى هَمَّام

(يلتفت إلى أمه وهي بجانب فراشه واهية الأركان ترنو إليه في ذهول وتتحادر دموعها ولا تستطيع الكلام من الأسى)

إصبري يـا أمـاه ! فـا لله أبقـى لـك مـني ومـن جميـع الأنـام !

(يصوب نظره إلى السماء)

رب رفقًا بقلبها المتشظي ! وحنانيك بالدموع الهوامي !
كن لها إن أتت ضحىً بطعامي فتنادي وليس رب الطعام !
كن لها إن أتت سريرى لإيقا ظي ؛ فترتد عنه والقلب دام !

(تنحدر من عينيه دمعتان كبيرتان ويدخل في دور الاحتضار الأخير)

(بصوت متقطع)

رب! من ذا أرى ؟ ملائكة المو ت ؟ ألا مرحبًا بوفد السلام !
رب! إني آمنت أنك أنت اللّـ ـه رب الجلال والإكرام
ونبيي محمد سيد السا دات طه إمام كل إمام
كلُّ زادي إليك خالصُ توحيـ ـدي فهَب لي يا رب حسن الختام

* * *

المشهـــد الرابـــع

همام في مكة بمنزل استأجره قريب من المسجد الحرام . يأتيه موزع البريد ويسلم إليه برقية من عدن . يوقعها همام فيخرج الموزع .

همام : **(بيده البرقية لم يفتحها بعد)**

برقيــة ! مــا شــأنها قــل لي ؟ هل مات لى أحد مــن الأهــل ؟
إنـــي أحـــس كـــأن حادثـــة جللا ستُفجعنى على مَهْــل
يــا بــرق مــاذا أنـــت تحمــل لي إنـــى أراك تَنـــوء بـــالثقل !
قلـــبي يحدثـــني ؛ ولم أره يومــا يحدثنـــى علـــى جهـــل

(يفتح البرقية ويجيل نظره فيها بسرعة)

مــاذا ؟ أماتــوا ؟ أماتــت حُســنُ ؟ واكبــدي
ربَّاه ..! خــذ بيــدي ! ربَّاه ..! خذ بيــدي !

(يسقط من مقعده على الأرض مغشيًا عليه . يسمع جاران له من الحجاج هدة سقوطه فيفتحان عليه البــاب حيث يجدانــه

ملقى فاقد الشعور . يحركه أحدهما ويأتي الآخر بماء ويرشه على وجهه . يفتح عينيه ثم يتحامل على نفسه حتى يجلس) :

يا حسرتي اليوم فارقت الحبيب إلى
غير اللقاء ! وواحزْني وواكمدي ؟
أشكو إليك إلهي ما مُنيت به
من الخطوب ولا أشكو إلى أحد !
كأنما أنا لم أخلَقْ لأشهد مِنْ
هذي الحياة سوى البأساء والنكد !
اليوم أسكب دمعي غير منقطع
إن غاض دمعي يمدُدْه دم الكبد !
يا رب لم يبقَ لي في العيش من أرب
فلَقِّني راحتي في هذه البلد !

(ينظر مرة ثانية في البرقية)

أماتت إذاً حسنٌ؟ ومات محمد ... وماتت على أثر السقام فتاته !
ثلاثة أحبابي بيوم فقدتهم! ... فيا لفؤادٍ أُثْخِنت طعناته ؟
ينوب من الشكوى ويدمى من الأسى ... وليس إلى غير الإله شكاته
محمدُ يا خير الأخلاء! والذي ... صفتْ مثلما تصفو المدام صِفاته
حنانيك لا تبعَد! لمن أنت تاركي؟ ... لقاسي زمانٍ أُولعت بي عُداته ؟
ويا ساعِدَ الإصلاح والباسل الذي ... به ارتفعت في قطرنا صرخاته

أتمضي و لم نهتِك من الجهل سِـتره   وما انفضَّ عن صرح الجمود حُماته ؟

أتمضي وفي جنبيـك قلـبٌ معطّـش   من الحُب لم تُبْلَـلْ بوصـلٍ لهاتـه ؟

أحين ظفرنـا بانتسـابك واضـحًا   تُغِصُّ به حلقَ الحسـود شجاته ؟

أحـين ظفرنا بانتسابـك واضحًا   تكُفُّ به طـرفَ الحسود قذاتـه ؟

وكنت على قاب من الوصل هانئًا   تطلّق عـن غُـرّ المنـى بسـماته ؟

وأنتِ فتاةَ النُبـل والطُهـر والحجى   تغشتك من رَوْح الرضى نفحاتـه

لضاعفَ مـن حزنـي فراقـك أنّـه   فـراقٌ بـه لاقـتْ حبيـبي وفاتـه

أراكِ وفـاءً مـا رأى النـاس مثلـه   فـدًى لحبيـب بالوفـاء مماتـه

ولم أنسَـهُ لمـا رآكِ مريضـة   فجاشت به في مشهدي حسراته؟

(تنهمر دموعه)

يقول : كـأني يـا هُمـام سـأنتهي   كأن حِمامي قد أقيمـت صلاتـه!

فقلت له: دع عنـكَ وهمكَ، إنَّ ذا   محيَّاك نَضْـر لم تَحُـلْ قَسَـمَاته !

فـأصغى لقـولي واطمـأن فـؤاده   وقرّت ـ على سُحر الردى ـ رجفاته

ومـا كنـت أدري أنـني أنـا واهـمٌ   وأن حبيـبي صـادقٌ كلماتـه !

(يريـد أحـد الجـارين أن يقيـم هماما مـن الأرض فيجذبـه صاحبه)

دَغْــه يُرســل دمعــه من بكى الشجـو اسـتراح

وإذا مـا كَبَـتَ الـ ـحُزْنَ في جنبيـه طـاحْ

الجار : ويحـه مـن مُوجَـع دَمِيَـتْ منـه الجـراح !

صاحبه : مـا عليـه الآن بـأ س وقـد صـاح ونـاح

همام : حبيبي ! مـالي في رثـائك مقول كأن فمـي شُكّت برمحٍ لهاتـه !

رثـاؤك في قلـبي يهـدّ أضـالعي وتلذع في أحنائهـا ضرباتـه

ولا يستطيع الشعر وصفًا لهولـه وتقصر عـن تصويـره خطواتـه

على أنه الشعر الذي الشعر دونـه سرت في الورى مسرى الضحى بيّناته

وإن قريضًا أنـت مصدر وحيـه لَتسـجد عُـزّاه لـه ومناتـه !

يميل بعطف الكـون قدسيٌّ لحنه وتعذُب في سمع الدُّنـى نغماتـه

تَقطّـعُ أعنـاق البلاغـه دونـه وتُزْهَـى بـه بـين الأنـام رواتـه

تُغَـصُّ بـه حسـاده وهـو سـائغ وأقتـلُ مـاء للحسـود فراتـه

ولكنه الخطب الذي الخطب دونه تلقـاه قلـب لا تلـين صَفَاتـه

ولو غيره أضحى بـه بعض ثقلـه لقـامت عليـه في المسـاء نعاتـه

فهـا هـو ذا قلـبي كسيرًا محطمًـا تفيـض دمًـا ثَجَّاجَـةً جنباتـه

لمن أطلب العلياء بعدك ؟ إنمـا حَدَتني إليهـا مـن سناك حُداتـه !

وأين سبيل المجد بعدك ؟ إنمـا بنـور محيـاك انجلـت ظلماتـه

فأنت الذي علّمتَ نفسي ركوبه ولـولاك مـا ذلّت لهـا صهواتـه !

ولقنتهـا حُـب الهـدى وجهـاده ولـولاك مـا اجتِيزَت لهـا عقباتـه

أتمضي وما جفّتْ رياحين عُرسنا ومـا برحـت بسّـامة زهراتـه ؟

أتمضـي ولمـا يَشْـفِ قلـبي أوامـه ومـا شققت أكمامهـا صبواتـه ؟

سلام على قَـبْرِ الحبيب ورحمـة وغـيث رضـى ما تنتهي قطراتـه

لئن كان أنسي في الحياة لقاؤه فانسي وهمي بعده ذكرياته!!
كأني بالثغر الجميل على فمي ترف به في نشوةٍ قُبلاته !
كأني بالفرع الجميل بمنكبي تداعبني في عَرْفها خصُلاته !
كأنيْ يمناه تجول بمفرقي فتلثمها في نشوةٍ شعراته !
لئن حالت الأيام بيني وبينه وقُدِّر للشمل الجميع شتاته
ففي جنة المأوى غدًا سوف نلتقي بفضل كريم لا تُحَد هباته
وإن عزاء القلب إيمانه به وقد فارقته في الحياة حياته
(ينهض فجأة)
خذوني خذوني إلى المسجدِ خذوني إلى الحجر الأسود !
خذوني إلى زمزم علها تُبرد من جوفي المُوقَد !
خذوني لأستارِ بيت الإلـ ـه أشُدَّ بها في ابتهالٍ يدي
دعونيَ أذهب إلى خالقي دعونيَ أذهب إلى سيدي !
دعوني أحطْ على بابه ثِقال الدموع وأستنْفِد
فإن أحيَ على لُطفه وإن يأتني الموت أُستشْهَد

(يخرج إلى المسجد الحرام يرافقه جاراه . يقصد زمزم فيكرع من مائها يتوضأ ويذهب إلى المطاف يطوف .. ثم يقف تجاه الملتزم ويتعلق بستر البيت :
الحمد لله اطمأنَّ قلبي ! هأنذا بين يَمينَيْ ربي ؟
إن عظُمت مصيبتي وخطبي فالله يرعانيَ وهو حسبي !

* * *

يـا رب أنـت الواحـد القهـار   وأنـت ذو الرحمـة والجبّـار
تفجّـرت مـن نـورك الأنـوار   وقَصُرت عن كنهـك الأفكـار

* * *

يـا رب لا نقـض لمـا أبرمْتَـا !   فَرَضِّـني ربّ بمـا حكمْتَـا
لعلـني أجهـل مـا عَلِمْتَـا   مـن صـالح لي في الـذي أقمتـا

* * *

يـارب ألهمـني العـزاء الشـافي !   واضمِد جروحي منك بالألطـاف
وآتِـني عزائـم الأسـلاف   فـأنت لي الكـافي ونعـم الكـافي

* * *

وأولـني مُنـاي في الدارَيْـن   و(حُسنًا) اجمـع بينهـا وبيـني
في دار خلْـد بـين جنّتَيْـنِ   أقْـررْ بـذاك عينهـا وعيـني

* *

يـا رب وارفـع (أمَّـة الإسـلام)   واقـذِفْ بهـا إلى المقـام السـامي
حتـى تُـرى خفّاقـة الأعـلام   علـى جميـع الكـون بالسـلام

* * *

ووحّد (العُرْب) ، فإن الوحـده تحيــي لهــا ماضِيَهــا وعهــدَه
تعيـد بعــد الانــدرَاس مجــدَه وا لله لا يُخلــف يومًــا وعــده

* * *

وانظر إلى (الأحقاف) بالرعايهْ وأولِهــا بفضلــك العنايــهْ
بــالعلم والأخــلاق والهدايــهْ فَجَــلَّ عنهــا الجهــل والعَمَايــهْ

* * *

وصــل يــا رب علــى المختــار خــير الأنــام ســيد الأبــرار
وآلــه وصحبــه الأطهــار مــا طلعت كواكــب الأســحار

* * *

هذا وقوفي خاشعًا بـين يديـك ! وتائبًــا مــن كــل آثــامي إليــك
متّكلا في كـل أحــوالي عليــك لبّيــك يــا رب الجــلال لبّيــك !

* * *

(ســتار الختــام)

للمــؤلف

١ ـ هُمام أو في بلاد الأحقاف
٢ ـ أخناتون ونفرتيتي
٣ ـ سلامة القس
٤ ـ وإسلاماه
٥ ـ قصر الهودج
٦ ـ الفرعون الموعود
٧ ـ شيلوك الجديد
٨ ـ عودة الفردوس
٩ ـ روميو وجوليت (مترجمة عن شكسبير بالشعر المرسل)
١٠ ـ سر الحاكم بأمر الله
١١ ـ ليلة النهر
١٢ ـ السلسلة والغفران
١٣ ـ الثائر الأحمر
١٤ ـ الدكتور حازم
١٥ ـ أبو دلامة (مضحك الخليفة)
١٦ ـ مسمار جحا
١٧ ـ مسرح السياسية
١٨ ـ مأساة وأديب
١٩ ـ سر شهر زاد

٢٠ ـ سيرة شجاع
٢١ ـ شعب الله المختار
٢٢ ـ إمبراطورية في المزاد
٢٣ ـ الدنيا فوضى
٢٤ ـ أوزوريس
٢٥ ـ فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية (محاضرات)
٢٦ ـ دار ابن لقمان
٢٧ ـ قطط وفيران
٢٨ ـ إله إسرائيل
٢٩ ـ هاروت وماروت
٣٠ ـ الزعيم الأوحد
٣١ ـ جلفدان هانم
٣٢ ـ قاب قوسين
٣٣ ـ الفلاح الفصيح
٣٤ ـ ملحمة عمر (١٨ جزءا)
٣٥ ـ حبل الغسيل
٣٦ ـ هكذا لقي الله عمر

رقم الإيداع : ١٠٢٢١ / ١٩٩٧
الترقيم الدولى : 4 - 1112 - 11 - 977

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه